أحمد بن عامر

الدولة الحفصية



صفحات خالدة من تاريخنا المجيد





دار الكتب الشرقية

أحمد بن عامر



صفحات خالدة
من تاريخنا المجيد



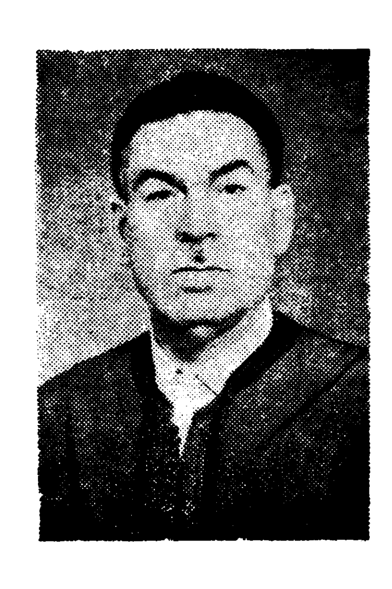
كلمة الناشر

يسرنا أن نقدم الى المواطنين الأعزاء هذا الكتاب « الدولة الحفصية » المتضمن صفحات ذهبية من الحضارة التونسية ، يدفعنا الى ذلك شعورنا بحاجة مجتمعنا الى الاستزادة من درس ماضيه ، واستخلاص العبر منه ، باعتبار ما بين الأجيال فى الأمم الناهضة من ترابط وثيق يصل ماضيها بحاضرها ، ويكون سندا لما تؤمله فى غدها .

وقد شجعنا على نشره ما وجدناه فيه من مادة دسمة ، من شأنها أن تساعد على ازدهار النهضة الفكرية ببلادنا . ومؤلفه الأستاذ احمد بن عامر من رجال التربية الأكفاء ، الذين قضوا جل حياتهم فى خدمة العلم والمعرفة ، واستقر به المطاف فى ميدان الكتابة والتأليف ، فبرهن بما نشر له عن ثقافة غزيرة ، واطلاع واسع ، ومقدرة فائقة ، وأصبح غنيا عن التعريف .

ونحن نومل أن يحقق عملنا ما نصبو اليه ، وأن تعم فائدته الجميع .

الناشر



المـؤلف

الأستاذ أحمد بن عامر — ولد ببلدة سيدي عامر (سوسة) في غرة جمادي الثانية سنة 1326 هـ. = غرة جويلية سنة 1909.

— أتم تعلمه الثانوي بمدرسة ترشيح المعلمين بتونس.

— باشر تعليم اللغتين العربية والفرنسية مدة تقارب ثلث القرن، قضى ما يفوق ثلثها بالمعهد الثانوي للذكور بسوسة، وتخرج على يديه نوابغ كثيرون يعتز بهم الوطن التونسي، وأشرف على تكوين معلمين مبتدئين عديدين.

— ساهم بقسط مشكور في الميدان الاجتماعي، والنهضة الثقافية، والحقل الوطني، والحركة النقابية.

– أحرز على التقاعد «بطلب منه»، وتفرغ للكتابة والتأليف. فكان ما نشر له من دراسات ومقالات ومؤلفات مما يشرف تونس الخضراء في عهدها الجديد. وهو عاقد العزم : على المضي قدما في ذلك السبيل، معتبرا عمله مساهمة منه في نشر الوعي – وعلى القيام بدوره على الوجه الاكمل، في هذه المعركة التي تشنها الأمة جمعاء ضد التخلف، لمواكبة التطور ، والالتحاق بركب الحضارة، وتحقيق فرحة الحياة .

الاهداء

أهدي هذا السفر المتواضع
– عنوانا على وفائي وإخلاصي –
الى زوجتي الطاهرة أم أبنائي المرحومة

الزهرة عطية

التي كانت لي خير مؤنس وأخلص صديق
في حياتي، وساعدتني على التأليف
بما وفرته لي من الراحة والهدوء، وبما
لقيته منها من التشجيع. تغمدها
الله برحمته، وأسكنها فراديس جنته.

المؤلف

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى أن معرفة المواطن لتاريخ وطنه التونسي تزيده حبا فيه، وتثبت أصالته به، وتبعث فيه الاعتزاز بأمجاده، وتقوي صلته بكيانه المعتبر، وتراثه المشمخر، وتمكنه من استخلاص العبر.

وسعيا وراء تحقيق تلك الغايات السامية قمتُ بتأليف هذا السفر المتواضع الذي أسميته (الدولة الحفصية). وذلك نتيجة بحث وتنقيب في عدة مصادر، اقتصرت على إثبات أسماء أهمها في نهاية الكتاب، لتكون مرجعا لمن أراد التوسع والزيادة.

وقد ضمنته تاريخ عهد من عهود بلادنا الزاهرة، هو عهد (الدولة الحفصية) التي دامت 347 سنة هجرية. كانت البلاد أثناءها في أزكى وأبهى أيامها،

على الرغم مما جدّ بها من ثورات واضطرابات، وتناحر ونكبات، لولاها لبلغت أوج المجد والعظمة.

والجدير بالذكر أن عدد عهود تاريخ بلادنا ستة عشر تتجلى من استعراضها وضعية عهد تلك الدولة. وهي:

1 — العهد البربري 3 000 — 814 ق. م.
2 — العهد القرطاجني 814 — 146 ق. م.
3 — العهد الروماني 146 ق. م. — 439 م.
4 — العهد الفندالي 439 — 534 م.
5 — العهد الرومي 534 — 647م. = 27 هـ.
6 — عهد الولاة العرب 27 — 184 هـ. = 647 — 800 م.
7 — عهد الدولة الأغلبية 184 — 296 هـ. = 800 — 909م.
8 — عهد الدولة الفاطمية 296 — 362 هـ. = 909 — 972م.
9 — عهد الدولة الصنهاجية 362 — 555 هـ. = 972 — 1160م.
10 — العهد الموحدي 555 — 634 هـ. = 1160 — 1237م.
11 — الدولة الحفصية 634 — 981 هـ. = 1237 — 1573 م.
12 — العهد العثماني 981 — 1117 هـ. = 1573 — 1705م.
13 — عهد ماقبل الحماية 1117 — 1298 هـ. = 1705 — 1881م.
14 — عهد الحماية الفرنسية 1298 — 1373هـ. = 1881 — 1954م.
15 — عهد الاستقلال 1373 — 1376 هـ. = 1954 — 1957م.
16 — العهد الجمهوري 1376 — .... هـ. = 1957 — ...م.

هذا وقد حرصت على أن أستعرض في كتابي هذا

حياة المجتمع التونسي، خلال عهد (الدولة الحفصيـــة) استعراضا شاملا ومجملا : لنظامه السياسي، والقضائـــي، والعسكري، ولحياته الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية. بما في ذلك من انحطاط وارتقاء، وضراء وسراء، وشقاء وسعادة، وحماية وسيادة — ولتاريخه — أي لصراعه قصد إثبات شخصيته، ولمساهمته في الحضارة البشرية.

وتجلت مساهمته بالخصوص :

— في المنشآت العمرانية التي أحدثها بالعاصمة، وصيرتها من المدن العجيبة، ومطمح الامال، ومحط الرحـــال.

— وفي ترميمه للحنايا القديمة، وإشادته تكملة لهـــا، أمكن بواسطتها إيصال ماء زغوان إلى العاصمة، بعد أن كانت محرومـــة منـــه.

— وفي استقباله لبعض مهاجري الأندلس، وإكرامهـم، وتمكينهم من الاستقرار. فاستفادت البلاد من خبرتهـم، وساهموا في عمرانها وترقيتها.

— وفي المعاهد العلمية التي أسسها، ففتحت سبل التقدم، وأنارت أشعتها البلاد، ومكنتهـا من أن تحتفظ بعروبتهـا وإسلامهـــا.

— وفي التأليف الذي أبرزه أحد أبنائه في التاريخ والاجتماع فأنار السبل، وأناله الذكر الحميد، وكسا سمعته مجدا مؤثـــلا.

– وفي المؤلفات التاريخية والدينية التي تركها بعض أبنائه، فأصبحت عمدة، واستمرت الاستفادة بهـا الى يومنا هذا، وأكسبته شهرة كبيرة.

– وفي قسمة مياه عيون جهة الجريد على غابة نخيلهـا التي تولاهـا أحد أبنائهـا بكيفيـة أعجزت مهندسي فرنسا عـن استبدالهـــا.

– وفي العمل على ترقية مستوى الحياة العائلية، وعلـى النهوض بالمرأة، فأصبح حظها موفورا، وأكسبهـا باعـا مديـدا في الأدب.

– وفي تأسيسه لأول مستشفى بالعاصمة ، وفي العمل على تنظيـم الطب وترقيتـه، مما أدى بملوك فـرنسـا لاستدعاء أمين أطبائـه ليعالج مـرضاهـم.

– وفي إحداثه في الميدان التجـاري. :لشركات منظمة لتبديل العملة وتسعيرها – ولمؤسسات للقروض، وتوزيع الأرباح، وضمان البضائـع.

– وفي تشييده للقنطرة التي تربط جزيرة جـربـه باليابسة من جهة جرجيس، والتي لا تزال قائمـة الذات رغم مرور السنيـــــن.

– وفي صراعه المتمثل في أنواع المقاومة التي جـابـه بها الاسبان والأميـــر الذي استنجد بهم، وفي تحمله، برباطة جأش وشجاعة مثالية، صنوف العسف، والاضطهاد والجبروت

التي سلطت عليه، وقابلها بردود فعل مشرفة. إثباتا لشخصيته.

في ذلك كله، تجلت بالخصوص مساهمة المجتمع التونسي في الحضارة العامة — ومن أجل نشرها في مختلف أوساطه سجلتها في هذا السفر المتواضع.

ومن خلال ذلك يتسنى للمواطنين — وللشباب منهم بالخصوص — أن يستمدوا ما يدفع بهم إلى السير بخطى أوسع، للخروج من التخلف نحو المجد، ورفع المستوى، والالتحاق بركب الحضارة.

ذلك ما قصدت تحقيقه، عندما صح مني العزم على القيام بهذا التأليف — مؤملا أن أكون قد أدركت غايتي. بعدما بذلت في سبيلها أقصى ما في استطاعتي. مكتفيا بكوني قمت بواجب نحو وطني، وأرضيت ضميري. لأن ذلك هو شعاري في أعمالي ومناي في الحياة.

سوسة في 14 ربيع الاول سنة 1392
وفي 28 أفريل سنة 1972

المؤلف

الفصل ـ 1 ـ

الدولة الحفصية

634 ـ 981 هـ . = 1237 ـ 1573 م .

الدولة الحفصية هي الدولة الاسلامية الرابعة بالبلاد التونسية وقد دامت 347 سنة هجرية.

ـ مؤسسها هو « أبو زكرياء يحيى الحفصي » بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، نسبة إلى هنتاتة إحدى فروع قبيلة المصامدة البربرية التي كانت تقيم بالمغرب الأقصى.

وقد تمكن من تأسيسها عندما كان واليا من قبل «الدولة الموحدية بالمغرب الاقصى» التي كانت البلاد التونسية تابعة لها منذ أن أصبحت في حوزتها سنة 555 هـ. = 1160 م.، إذ اغتنم فرصة تراجع أمر خلفاء تلك الدولة وضعفهم، واختلال سلطتهم، فأعلن الاستقلال، وتأسيس « الدولة الحفصية » فلم يلق أية معارضة من أحد، وانقادت إليه البلاد طائعة ـ وذلك سنة 634 هـ. = 1237 م.

وجده « أبو حفص » كان من الذين ساعدوا عبد المؤمن بن علي الكومي. المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية، وأحرز بفضل تلك المساعدة على منزلة رفيعة في تلك الدولـة.

ووالده « أبو محمد عبد الواحد » كان وزيرا للخليفة الموحدي الناصر محمد يعقوب الذي عينه واليا بتونس. وإثـر وفـاته باشر الولايـة على التـوالي : أبـو زيـد عبد الرحمان. ثم أبو العـلاء إدريس بن يوسف. ثم عبـد الرحمـان بن إدريس. ثم أبو محمد عبد الله عبود، ثـم (أبو زكرياء يحي الحفصي) الذي عين سنة 625 هـ. = 1228 م. والذي يعتبر (واليـا) في المدة التي تمتد بين تاريخ تعيينه وبين تاريخ إعلانه الاستقلال و (أميرا) بعد ذلك. أي منـذ تأسيسه الدولة الحفصية . ومن الغلط الفادح اتخاذ تاريـخ تعيينه واليا بداية للدولة الحفصيـــة.

وقد بلـغ عدد أمـراء الدولة الحفصيـة 24 أميـرا — وهم :

1 — أبو زكرياء يحيى 634 — 647 هـ. = 1237 — 1249 م.
2 — محمد المستنصر بالله 647 — 675 هـ. = 1249 — 1277 م.
3 — أبو زكرياء يحي الواثق 675 — 678هـ. = 1277 — 1279م.
4 — أبو إسحاق ابراهيم الأول 678 — 683هـ.=1279—1284م.
5 — أبو حفص عمر الأول 683 — 694 هـ. = 1284 — 1295م.
6 — أبوعبدالله محمد أبوعصيدة 694—709هـ.=1295—1309م.
7 — أبو بكر بن يحي 709 — 709 ه. — 1309 — 1309م.

8 — أبو البقاء خالد الاول 709 — 711 هـ. = 1309 — 1311م.
9 — أبو يحي زكرياء الاول 711 — 717 هـ. = 1311 — 1317م.
10 — محمد أبو ضربة 717 — 718 . = 1317 — 1318م.
11 — أبو بكر بن أبي زكرياء 718—747 هـ. = 1318—1346م.
12 — أبو حفص عمر الثاني 747 — 748 هـ. = 1346 — 1347م.
13 — أبو العباس الفضل 750 — 751 هـ. = 1350 — 1350م.
14 — أبو اسحاق ابراهيم الثاني 751—770هـ.=1350—1369م.
15 — أبو البقاء خالد الثاني 770 — 772 هـ. = 1369 — 1370م.
16 — أبو العباس أحمد الاول 772—796هـ.=1370—1394م.
17 — أبو فارس عبد العزيز 796 — 837 هـ. = 1394 — 1433م.
18 — محمد المنتصر 837 — 839 هـ. = 1433 — 1435م.
19 — أبو عمرو عثمان 839 — 893 ه. = 1435 — 1488م.
20 — أبو يحيى زكرياء الثاني 893—899هـ.=1488—1493م.
21 — أبو عبد الله محمد 899 — 932 هـ. = 1493 — 1526م.
22 — الحسن بن محمد 932 — 950 هـ. = 1526 — 1543م.
23 — أبو العباس احمد الثاني 950—977هـ. = 1543—1569م.
24 — محمد بن الحسن 977 — 981 هـ. = 1569 — 1573م.

ملاحظة 1) لم نعتبر من الامراء « ابا العباس احمد » الذى ثار على الامير 12 واغتصب منه الامارة ، فقتله بعد اسبوع واسترجعها منه .

2) لم نعتبر من الامراء « ابا الحسن المريني » الذى احتل العاصمة وبلغت مدته فيها 30 شهرا ونصفا . ولذلك يوجد فراغ بين مدة الاميرين 12 و 13 — .

الفصــــــل ـ 2 ـ

النظام السياسي

كانت منطقة نفوذ الدولة الحفصية تشمل : البـلاد التونسية، وطرابلس، ومقاطعة قسنطينة من بلاد الجزائر. وكانت منقسمة الى مناطق على رأس كل منها وال ـ أو عامل يعتمدون على مشائخ البلدان، ورؤساء القبائـل. واعتاد الامراء تعيين الولاة والعمال من بين أقاربهـم.

وفي عهد هذه الدولة كانت البلاد مستقلة مدة الـ 308 سنة الأولى، ومحمية إسبانية مدة الـ 39 سنة الأخيـرة.

وقد لُقب ملوكها بلقب « أمير » ثم بلقب «أمير المؤمنيـن » ، وبلقب « السلطان ». وكانت أسماؤهم تذكر في الخطب الجمعيـة، وتنقش على السكة. وكان نظام الحكم وراثيا، والأمير رئيسا للدولة. والحاكم المطلق، يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية. ويعتمد على مجلس استشاري يلقب رئيسه بـ(الشيخ الأعظم)، ويتركب من عشرة

مشائخ يعينهم الأمير، ويعتملون بلدورهم على مشورة مجلس آخر يضم خمسين شيخا معينين من طرف الأمير أيضا.

– وأعضاد الأمير على تسيير شؤون الدولـــة :

– حاجب يربط الصلة بينه وبين الرعيـة.

– وثلاثة وزراء يشرفون على دواوين حكومية منظمـــة يرجع بالنظر إليها : القضاء، والجيش، والمالية، ويعمل بها متوظفون عديلون، ومأمورون كثيرون، من العناصر المقتدرة.

– ومأمور يسهر على نظام الأمن، ويراقب الأسواق.

– ومدير للجمرك أو الديوانة يشرف على (ديوان البحر) الذي ترجع إليه بالنظر « مراكز الجمرك » الموجودة بالمواني وأبواب العاصمة وبقية المدن، ويتولى رؤساؤها (1) استخلاص أداء المكس على الصادرات والواردات .

وكان مقر الحكم بالعاصمة « القصبة » التي كانت موجودة بجوار المعهد الصادقي الحالي، ووقع تهديمها في عهدنا الحاضر. وكانت تشتمل على دواوين الحكومة، ومقر انعقاد المجالس، ومساكن الامراء، وآل بيتهم، وبعض رجال حاشيتهم، وقسم من الجند الملكي.

1) يعرف الواحد منهم باسم « امير الباب » .

وبالاضافة الى تلك المساكن، كان الامراء يملكون قصورا مشتملة على بساتين بضواحي العاصمة – ومنهـا : قصر باردو، وبرج السلاسل بالدرسى، وقصر رأس الطابية، وقصر أبي فهر قرب أريانـة الذي كان مشتملا على جابية تشبه بحيرة تجري فيها القوارب، وأنشأه الأميـر محمـد المستنصر باللـه.

– ولم يكن للبلاد « علم وطني » لأنه من الأمـور المستحدثة وإنما كانت لهـا « صناجق » مختلفة الألوان والأشكال، حل محلهـا « العلم الوطني الحالي » منذ أسسه سنة 1247 هـ. = 1831 م.، خلال عهد ما قبل الحماية، الباي الثامن للدولة الحسينية « حسين الثاني » (1).

– وكان للامراء (طغراء) – أي شعار للملك والدولة – وهي علامة تكتب في أعلى المراسلات الرسميـة كرمز للسلطة الصادرة عنها. وقد عفت رسومهـا بتجدد نار الفتن في ربوع البلاد. وممن باشر كتابتها المؤرخ المشهـور « ابن خلدون » (2).

– وكانت السكة عندهم مربعة الشكل ، بعد أن ظلت خلال العهود السابقة ذات شكل مستدير. وتتكون مما يلي :

---

1) ص . 58 ـ تاريخ معالم التوحيد
2) ص . 251 تونس عبر التاريخ ـ و ص . 136 تاريخ معالم التوحيد

– الدينار – وهو من الذهب، ويزن أربع غرامات واثنين وسبعين مليغراما.

– والدرهم – وهو من الفضة، ويزن غراما واحدا ونصفا.

– والحندوس – وهو من النحاس. وقد عوض « الفلس » الذي ظل مستعملا خلال العهود السابقة.

وكانت الكتابة على السكة بالخط الكوفي المزخرف أو بالخط الأندلسي . أما نصها، فانه قريب المعنى ولا تكاد تختلف عباراته الا قليلا .

من ذلك « الدينار » في مدة مؤسس الدولة. الأمير أبي زكرياء يحي – فقد كان مكتوبا :

– على وجه، في الوسط : الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله – وفي الدائرة : بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد، وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

– وعلى الوجه الثاني، في الوسط : أبو محمد عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين، الحمد لله رب العالمين – وفي الدائرة : الأمير الأجل أبو زكرياء يحي بن أبي محمد ابن أبي حفص.

أما الكتابة في « الدرهم » فكانت :

– في الوجه : لا إله إلا الله، الأمر كله لله، لا قوة إلا بالله.

– وفي القفا : الله ربنا، محمد رسولنا، المهدي إمامنا.

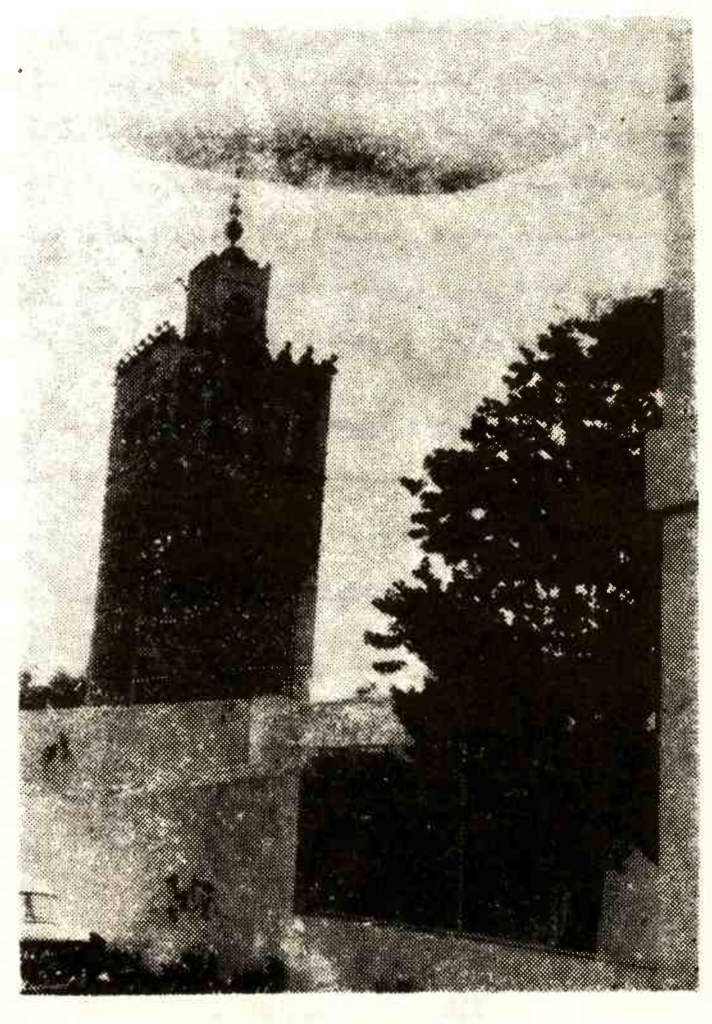
وكان الدينار يتجزأ إلى : نصف دينار، وربع دينار، وثمن دينار. ومنذ أيام « محمد المستنصر بالله » عوض في كتابة الدينار، لقب الأمير بلقب « أمير المؤمنين ». ومنذ أيام « أبي عمروعثمان » صار الدرهم يعرف باسم « الناصري » جمع نواصر، ويتجزأ إلى « خُمْسي » وهو خمسة أسداس، وإلى « خروبة » وهي أربعة أسداس، وإلى « نصف ناصري » وهو ثلاثة أسداس، وإلى « قفْصي » وهو سدس الناصري.

– وبجانب السكة الحفصية، راجت سكة الاسبان في مدة « الحماية الاسبانية » ومنها :

– الدوكة، وهي تعادل الدينار.

– والكرونة، وهي تساوي الناصري.(1)

1) : لمبحث السكة مصدران وهما :
1) تونس عبر التاريخ ــ ص . 218
2) ورقات ــ 1 ــ ص . 455



جامـــع القصبـة بتـونس

الفصـــل ـ 3 ـ

العاصمة

بقيت مدينة تونس عاصمة للبلاد. إذ قد اتخذت في العهد الموحدي، ووقع الاختيار عليها: لأهميتها التاريخية، ولحسن موقعها، ولمـا بلغته من الشأن في مدة أمراء بني خراسان الذين حكموها فـي أواخر عهد الدولة الصنهاجيـة.

— وهي قرية بربرية قديمـة، مشيدة فوق سفح جبل عرف فيما بعد بجبل أم عمرو، كانت ضئيلة في العهد القرطاجني، ووقع ذكرها في تاريخ الحروب البونيقية، إذ اتخذت أحيانا مركـز اقـامة للجنـد. وأثبت اسمهـا في كتاب (المسالك والممالك) في العهد الـرومـاني. وصارت مدينة أسقفية في عهدي الفندال والروم أو البيزنطيين.

— وفي عهد الولاة العرب، وجد الخراب مستوليا عليها. فأحيى عمرانها الوالي (حسان بن النعمان) إثر استيلائه على مدينة قرطاجنة، إذ قد اتخذها معقلا، وخرق للبحر مجرى في وسط البحيرة المتصلة بها فأصبحت مرفأ على البحـر

الأبيض المتوسط. وأنشأ بها دار صناعة لتكوين أسطول بحري : يحمي البلاد التونسية. ويخضد شوكة القوات الروميةـ أي البيزنطية التي كانت تهددها. وشُيد بها في مدة الوالي (عبد الله بن الحبحاب) سنة 114هـ. = 732 م. جامع الزيتونة، على أنقاض معبد وثني خرب. ولم تلبث أن اتسعت وكثر عمـرانهـا.

ـ وفي عهد الدولة الأغلبية مصرت، إذ ازدادت أهميتها واتخذها بعض الأمراء مقرّا، وأصبحت قاعدة حربية، وتكاثر بها الجند، وتعددت ثوراتهم، وكذلك المرابطون لحراسة الثغور بالرباطات الكثيرة التي اشتهر من بينها : رباط الجراح بالمرسى، ورباط جبـل المنـار.

وفي القرن الخامس الهجري ـ العاشر الميلادي، زارها «أبو عبيد الله البكري» وأطنب في وصفها فـي كتابه (المسالك والممالك) وذكر أنها :

« كانت مصرا عظيما، يحيط بها سور له عـدة أبواب. ولها أسواقها، وحماماتها، وخاناتها. وبها حركة علمية عظيمة. وحولها نطاق من البساتين الريـانـة » .

وعندما ضعفت سلطة الدولة الصنهاجية، وتداعى أمرها، وضعف سلطان أمرائها ، وأصبحت البلاد فريسة بين أيدي الأعراب والنرمان، صارت تونس إمارة لبني خراسان.

فعظم بهم شأنها، واتسع عمرانها، ووقع تجميلها، وأنشئت بها القصور والمساجد والأسواق والحمامات والخانات. وازدهرت أسواقها حتى صارت مدينة تجارية، ومحط رحال تجار بلدان البحر الأبيض المتوسط.

وفي العهد الموحدي، جُعل منها عاصمة جديرة باسمها. إذ ازدادت منشآتها، وعمرت أسواقها بالتجار والصناع.

وفي العهد الذي نؤرخه، استمرت على زهرتها وجلالها. وأنشئ بها ربضان جديدان، خارج سورها القديم، عند باب الجزيرة وباب السويقة. وأقيم سور جديد خارجي يحيط بالربضين، ويجعلهما بين سورين. وبنيت في كل من السورين أبواب عظيمة أهمها: الباب الجديد، وباب البحر اللذان لا يزالان قائمين الى اليوم، وباب المنارة الذي وقع تهديمه في عهدنا الحاضر لتوسيع الطريق. ومكان هذا الباب مواجه للمقر الحالي لوزارة الدفاع الوطني.

وقد تجمعت دكاكين بعض الحرف عند هذه الابواب فالصباغون داخل باب الجزيرة. والحدادون عند باب الجديد. والسراجون عند باب المنارة.

وكانت تجاور باب البحر عدة فنادق يتوزعها التجار النصارى. فلما ضاقت بهم هذه البقعة، بادروا الى بناء ربض خارج ذلك الباب كان الصورة الاولى للحي الأروبي أو المدينة الحديثة، وامتاز برحبات واسعة يبيع الناس فيها ويشترون.

وبالإضافة الى ما سبق ذكره، فقد ازدادت منشات المدينة، وامتلأت ضواحيها بالقصور والمنازه. ومن أجل ذلك كله أطنب الكُتاب في وصف اعجابهم بها، وأفاض الشعراء في الاشادة بما بلغته من الحضارة والرفاهية والعظمة.

— وقد تضمن وصفها خلال العهد الحفصي. نصّ منقول عن « شهاب الدين العمري » جاء فيه ما يلي : (1).

« وبتونس ثلاث مدارس : الشماعية — والمعرّضية (خربت) — والتوفيق. وبها الحمامات، والاسواق الجليلة. ويُعمل بها القماش الافريقي وهو ثياب رفيع من القطن والكتان معا، ومن الكتان وحده. وثيابها أمتع من النصافي البغدادي وأحسن، وهومن أجلّ كساوي المغرب. وللأمير بستانان : أحدهما ملاصق لربض البلد اسمه « رأس الطابية » والاخر بعيد عن البساتين اسمه « أبو فهر » بينه وبين البلد ثلاثة أميال. والماء مساق اليها من ساقية زغوان (جبل بعده يوم عن تونس ويدخل منه فرع).

وليس لاهل تونس شرب الا من الابار، أحدها بئر ضبيان. وبالبيوت صهاريج مجمع مياه الأمطار، لغسل القماش وغير ذلك.

1) الكتاب المدرسي فى التاريخ التونسى ـ ص . 210 ـ .

– وهنالك نص منقول من رحلة (العبدري) الذي زارها سنة 688 هـ. = 1289 م.، في عهد الأمير الخامس « أبي حفص عمر الاول » نقتطف منه ما يلي (2) :

« مدينة تونس مطمح الامال – ومصبّ كل برق ومحط الرحال – من الغرب والشرق – وملتقى الركاب والفلك – وناظمة فضائل البرّين في سلك.

فان شئت أصحرت في موكب، وان شئت أبحرت في مركب، كأنها ملك والارباض لها إكليل، وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بليل.

وهذه المدينة – كلأها الله – من المدن العجيبة الغريبة. وهي في غاية الاتساع ونهاية الاتقان. والرخام كثير بها. وأكثر أبواب ديارها معمول منه عضائد وعتبا.

وجُلّ مبانيها من حجر منحوت محكم العمل. ولها، أبواب عديدة، وعند كل باب منها ربض متسع على قدر البلد المستقل ».

---

1) خلاصة تاريخ تونس – ص . 113 – .



بــاب المنــارة

الفصل – 4 –

القضاء

– في هذا العهد، كان القضاء يقع حسب المذهب المالكي الذي أقره الامراء إقرارا نهائيا، لان أحكامه لا تتعارض مع تعاليم الموحدين التي استمسكوا بها، ولم ينفرها السكان المسلمون.

– وكانت الطريقة المتبعة أن القاضي لا يبقى في خطة القضاء بجهة أكثر من ثلاث سنين، ثم ينتقل لغيرها الى أن يتعين لقضاء العاصمة، ثم للفتوى والشورى (1).

– وكان الحكم بين الناس في مختلف الجهات يتولاه قضاة. وكلما أشكل عليهم أمرٌ بعثوا الى شيوخ الافتاء يسألونهم. وكان للجيش قاض خاص به.

– أما العاصمة فكان بها : قاضي الأنكحة – وقاضي

1) تاريخ ابن ابى الضياف – ج . – 1 – ص . 187 – .

المعاملات – وقاضي الأهلة – وشيوخ إفتـــاء . وجميعهم يرجعون بالنظر الى قاضي الجماعة – أي قاضي القضاة – الذي كان يتمتع بنفوذ واسع. ويتصرف في الأحكام كما يشاء، ويتولى تنفيذهـــا.

وكان ينعقد بالعاصمة كل يـوم خميس مجلس، تحت أشراف الأمير، ويحضره : القضاة – وشيوخ الافتاء – والعلماء، ويحكم في النوازل المعضلة.

وكان الأمراء يعظمون الشرع ويمتثلـون لأحكامه . اذ يحترمون القضاء، ولا يتداخلون في شؤونه. ويتركون للقضاة حريتهم. ويحترمون فتاوي شيوخ الافتـاء.

وبذلك عظم شأن القضاء، وانتظم أمـره، وقوي جانب القضاة، فكانوا لا تأخذهم في الحق لومة لائم، وكان القول الفصل لما يحكون به – (المؤنس ص 292).

من ذلك أن (محمدا أبا ضربة) – ولي عهد الأمير الحفصي التاسع « أبي يحي زكرياء » اتهم بجريمة قتل عمدا فمكنه أبوه لقاضي الجماعة « أبي اسحاق إبراهيم بن عبد الرفيع » للقصاص فحكم عليه بالموت إذ اعترف بالقتل وثبتت إدانته.

ولما عفا عنه أولياء القتيل – أي أسقطوا عنه الدعوى، أبدل قاضي الجماعة الحكم – حسب المذهب المالكي – بالضرب مائة، وبالسجن مدة عام.

ومن ذلك أيضا، أن أحد الأمراء لزمته كفارة عن تعمده الافطار يوما من شهر رمضان. فاستفتى، فأشار عليه بعض العلماء بأن يكفّر عن ذلك بعتق مملوك مسلم سالم من العيوب. وهو أمر بسيط بالنسبة لأمير. وأفتاه شيوخ إفتاء بأن يكفر عن ذلك بصوم شهرين متتابعين، باعتبار أن المال الذي بيده ليس له، وأنه للمسلمين، ليس له فيه إلا التصرف بما تقتضيه المصلحة، وليس له أن يعتق منه. فعمل الأمير بفتوى شيوخ الافتاء وتجشم مشقة صيام شهرين متتابعين.

والجدير بالذكر، أن المحكمة كانت دار القاضي أو مكانا يختص به، وأن السجن بمعناه الحالي كان موجودا.



أثر فرع من الحنايا الحفصية

الفصل ـ 5 ـ

الجيش

كان الجيش محل عناية الأمراء. وكثيرا ما أفاضوا العطاء له. وكان متنوع العناصر، ووافر العدد، وعتيدا، ضرورة أنه مكلف بالسهر على أمن الأمير، ومنوط بعهدته السهر على أمن البلاد.

وقد اعتبر بعض المؤرخين تنوّع عناصره وسيلة للحيلولة دون اتفاقها برمتها على أمر أو قيامها بانقلاب، واتخذوا وفرة عدده دليلا على الاحتياط للطوارىء.

وكانت أسلحته عديدة. منها: السيوف، والرماح، والنبال، والخناجر، والصفائح، والدبابيس. أما المكاحل والمدافع فلم تكن ظهرت في بداية هذا العهد، وإنما ظهرت في المدة الأخيرة منه (1).

1) المؤنس ـ ص. 300 ـ.

والملاحظ، أن البلاد قد عرفت : البارود السهل الانفجار، الدافع للقذائف بواسطة آلات خاصة في (العهد الموحدي). والمعركة التي وقع استعمال ذلك أثناءها : كانت بمدينة المهدية، لاعتصام أحد الثائرين بها. وذلك سنة 602 هـ. = 1205 م.. فقد ضربت تلك المدينة بآلات لم يرها الناس قبل ذلك. إذ كانت كل واحدة منها ترمي قذائف من الحجارة والكور الحديدية، فتسقط وسط المدينة (1).

وكانت للجيش الحفصي فرقة يعرف أفرادها بـ(أصحاب النفير)، ويتولون دق الطبول، والنفخ في أبواق، ويمشون وراء الصناجق الأميرية، ويصحبون الأمير إذا زار العاصمة، أو تنقل في سفره بالمحلة.

- والجيش قسمان :

1) جند ملكي. وهو حرس خاص بالأمير، يتركب من فرقة للفرسان، عناصرها مسيحيون- ومن فرقة للمشاة، تنوعت عناصرها وتغيرت : فكانت من السود، من سكان العاصمة، ومن مهاجرين أندلسيين، ومن أتراك. وجميعهم مأجورون.

وكانت لهم حظوة خاصة في البلاط، ويرتدون زيا

---

1) ص . 446 تونس عبر التاريخ .

خاصا، ويعرفون بـ(عبيد المخزن)، ويسكنون محلات متجمعة قبالة المقر الحالي لوزارة الدفاع الوطني.

2) وجند نظامي – يتركب من مشاة وفرسان : إطاراته من الحفصيين الموحدين – وعناصره من البربر، يجندون بواسطة قبائلهم مقابل إعفائها من بعض الضرائب، أو بعنوان مساهمة مجانية في المحافظة على أمن البلاد، أو مقابل أجور معينة، أو بعنوان ولائها للدولة.

ولم يكن عدده قارا، بل تغير حسب الظروف. وكثيرا ما انخرط في سلكه متطوعون عندما يداهم البلاد خطر أجنبي. وكثيرا ما وقعت الاستعانة بالبدو والرحل عند الحاجة.

وبجانب الجيش، كان للدولة أسطول بحري قوي. ولتمكين الجيش والأسطول من السهر على أمن البلاد وسلامتها، والقيام بحمايتها، وحراسة ثغورها رممت قصبة مدينة باجة، وتم تحصين رباط المنستير. وأنشئت القصبات، والمحارس، والمعاقل، والقلاع – منها : قصبة بكل من مدن سوسة، والمنستير، وصفاقس، والكاف، وكانت الواحدة في مثابة مدينة مصغرة حصينة محاطة بسور – ومنها : محارس رأس أدار – والحمامات – ورفراف.

وقد بذل الجيش جهده لتوطيد الراحة والأمن داخل البلاد، بالقضاء على معظم الثورات – سواء التي أعلنها

الأمراء على بعضهم تنازعا على السلطة، أو التي جدّت بين زعماء العروش والقبائل، ورؤساء الطوائف والجماعات.

كما تمكن الاسطول من جبر الأساطيل الأجنبية على احترام سواحل البلاد، ومن مجابهة بعضها وإرجاع أصحابها عن أعقابهم خاسرين.

وبفضل ذلك عظم شأن الدولة، وحظي أمراؤها الأولون – في مجدوعهم – بعز وسلطان ونفوذ لم يتسن لكثير من الملوك.

لكن كثرة الفتن والقلاقل والثورات الداخلية التي حدثت في مدة الأمراء الأخيرين، أنهكت قوى الجيش واعتراه بسببها الضعف والفشل، وتفككت عناصره، وانحلت عراه، وحال تفوّق قوات المغيرين العديدين دون انتصاره، وتشتت شمله.

فاضطر الأمير الثالث والعشرون «أبو العباس أحمد» لتأليف جند ملكي جديد واجه قوات «علي باشا» فهزمته، ثم انضم اليها بدون جدوى. إذ وقع الاستنجاد بالاسبان ثانية فانتصروا. وإزاء ما لقيه السكان منهم من الجور والظلم والطغيان، وانتقاما منهم ومن الأمير الرابع والعشرين «محمد بن الحسن»، انضموا الى جانب قوات «سنان باشا» فكان الانتصار حليفهم حسبما سنوضحه.

الفصــل ـ 6 ـ

أشهر الامراء

الأمراء الحفصيون 24 أميرا. والمشهورون منهــم – بالنظر الى ما جدّ في عهدهم من الأمور الهامـة – يبلغ عـددهم عشـرة – وهــم :

1) مؤسس الدولة – أبو زكرياء يحي.

في أيامه، تضاءلت الدول التي كانت حوله – ومنها : الدولة الموحدية بالمغرب الاقصى، التي بقيت البلاد التونسية تابعة لها مدة 79 سنة هجرية عرفت بـ(العهد الموحدي).

وقد قوي أمره : إذ دانت له البلاد التونسية بعد أن أنهى قمع الثائرين – واستولى على تلمسان وبقية بلاد الجزائر.

وبفضل ذلك، بايعته : سلجماسة، وسبته، وطنجة، ومكناسـة، من بلاد المغرب الاقصى – وشاطبة، وإشبيلية، والمرية، وغرناطة، من بلاد الأندلس.

وهكذا عظم شأن الدولة في مدته. بالاضافة الى أنه امتاز بالعلم وحسن التدبير: واشتهر بالتقشف في لباسه ومأكله ومركبه. وكان يحمل رجال دولته على الاقتداء به في ذلك ولو أدى به الأمر الى تهديدهم.

من ذلك. أنه استدعى ذات يوم أحد وزرائه وقد بلغه أنه مسرف. فلما دخل عليه، وجده جالسا على كرسي من خشب وبيده إبرة يرقع بها ثوبه، فسلم عليه . فنظر اليه شزرا، وأذن له بالجلوس.

ثم استدعاه للاكل معه — وذلك من طعام واحد ورغيف غير نقي. ولما فرغا أمره بالانصراف . فخرج الوزير محتارا. وأخبر أحد أصدقائه مستفسرا عن هدف ما حدث. فقال له : إن الأمير يشير عليك بالتقشف. وينهاك عن الاسراف. وإلا فالويل لك.

وفي الموضوع، أثبت ابن أبي دينار في (مؤنسه) قول الوزير نفسه : « لما استدعيت، أدخل بي بابا بابا الى أن انتهيت الى باب قبة الأمير. فوجدته جالسا على كرسي من خشب وبيده إبرة وهو يرقع ثوبه. فسلمت عليه، فأمرني بالجلوس، وإذا بخادم قد أتى بمائدة مغطاة ، ثم رفع الغطاء عن المائدة، فاذا بها طعام واحد، ورغيف خبز غير نقي. فأكل وأكلت معه. فلما فرغنا، قال لي : انصرف بسلام. فخرجت، ووقعتْ عندي حيرة، فأخبرتُ بذلك بعض أصدقاء لي،

فقال : ومـا صنعت ؟ قلت : لا شيء، إلا أني لما دخلت عليه نظرني شزرا. فقال لي : دخلتَ عليه في ثيابك هذه ؟ قلـت : نعم. قال لي : من هنا أتي عليك . تراه أخبرك : أن كسوته المرقعة، وأكله الخشن من الطعام. فان أنت انتهيت عـن فعلك، ولباسك الثياب الرفيعة، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك ! ».

واشتهر هذا الأمير أيضا بـ(وصية) جليلة كتبها الى ابنــه. ولي عهده. وهي تدل على فضله. ويجدر بكل مسؤول أن يتحلى بها حوته. ولنفاستها وطرافتها. سنسجلها ضمن « مـلاحـق » الكتاب.

واشتهر أيضا بخيريته التي أثبتها باجارته لبنات الثائــر « ابن غانيــة » الثلاث. في قصر بالعاصمة ـ عرف باب حيه باسم « باب البنات ».

وفي مدته قدم بعض مهاجري الأندلس، فاستقروا بتونس وبنزرت وغيرها. ومن بينهم : العلماء، والكتاب، والشعراء، والمهندسون، والأطباء، واصحاب الحرف والصنائع. كما جمعت مدته من كبار العلمـاء والشعـراء وأهـل الصـلاح ما لم يجتمع لغيره. وجمع بعدله وسياستـه أموالا لا تحصى، وكتبا بلغت عدتها 36 ألف مجلـــد.

2) محمد المستنصر بـالله.

هو ثانـي الأمراء وفي مدته تدعمت أركان الدولة : بالقضاء

على كل منازع، وبحسن التدبيــر والسيـاسة. وبذلك كانت أيامه أزهى أيام الأمراء الحفصيين، وطار صيتـه في الا فاف، وبلغت شهرته القاصي والـدانــي.

فأتته بيعة (بني مرين) مؤسسي (الدولة المرينية) التي خلفت (الدولة الموحدية) منذ سنة 668 هـ. = 1269 م.، ووصلته هدية من بـلاد السـودان.

وجاءته بيعة الشريف العلوي أمير « أم القرى » (مكة) فاهتز لها، وعظُم صداها إثر الاعلان عنها، فدعي مـــن أجلها بأمير المؤمنيـن، ومدحـه أحد الشعراء بما يلي :

أهنأ أمير المؤمنين ببيعتـــــه	جاءتك بالاقبال والاسعاد
فلقد حباك بمُلك رب الورى	فأتى يبشر بافتتاح بـــلاد
وإذا أتتك «أم القرى» منقادة	فمن المبرة طاعة الاولاد

ومن مآثره : أنه قام باصلاح الحنايا الأصلية ــ أي الغير الشامـلة لفرع جوقار، وأشاد تكملة لهـا بداية من مكان يسمى الآن « المنيهلة » واقع بين باردو وسبالة صاحب الطابع (تونس عبر التاريخ ــ ص. 452) ــ .

وبذلك تمكن من إيصال مياه عيون زغوان الى قصر رأس الطابية، ثم الى قصر أبي فهر قرب أريانة، ثم الى صهريج داخل باب اللواء ــ أي باب سيدي عبد الله بتونس. ومن هنالك جلب الى جامع الزيتونة في أنابيب من رصاص،

ليستقي منه السكان الذين ليس لهم مواجل بمحال سكناهم.

والجدير بالذكر، أن الحنايا شيدت في العهد الروماني وكانت ذات أقواس منيعة تعلوها ساقية، وجُلب عليها الماء من عيون زغوان الى قرطاجنة، ثم أضيفت اليه مياه عين جوقار. وفي المدة الأولى، كانت تلك الحنايا تمتد في ارتفاع عشرين مترا على مسافة التسعين ميلا الفاصلة بين زغوان وقرطاجنة، وتشق سهول أوذنة، وتخترق منبسط وادي مليان.

وعندما أضيف الى ماء زغوان ما أضيف. بعد ان أنجزت الأشغال اللازمة لذلك، أصبحت الحنايا تمتد في نفس الارتفاع على مسافة 132 ميلا. وكان عرض ساقية الحناية 80 سنتيمترا، وارتفاعها مترا و82 سنتيمترا. ومنها كان يتدفق 22 مليونا ليترة في اليوم — أي 370 ليترة في الثانية.

وقد هدمت تلك الحنايا في عهد الفندال، ورممت في عهد الروم، ثم هدمت في عهد الولاة العرب، فبقيت معطلة طيلة عهود الدول : الأغلبية، والفاطمية، والصنهاجية، وأثناء العهد الموحدي، ومدة الأمير الحفصي الأول.

غير أن ذلك الانجاز لا ينسينا ما يؤخذ عليه من التصرفات الشنيعة التي صدرت منه، واتخذت دليلا على «أن الكمال متعذر» ومنها :

— أنه تقبض على العالم «ابن الأبار» فحبسه وعذبه، ثم أمر

بقتله قطعا بالرماح، وبحرق جثته مع سائر تآليفه وكتبه — لانه نمي إليه أنه يتنقصه (ج — 1 — تاريخ ابن أبي الضياف ص. 161) — .

— أنه بينما كان جالسا على حافة الجابية التي يشتمل عليها بستان قصر «أبي فهر» إذ دخل عليه الشيخ «ابن عصفور» الامام النحوي، وانضم الى مجلسه. واثر ذلك تحدث الأمير — وهو معجب بنفسه — وقال للشيخ : لقد أصبح ملكنا عظيما ! فأجابه قائلا : بنا وبأمثالنا.

فأسَرَّ الأمير في نفسه تلك العبارة الدالة على اعجاب الشيخ بنفسه، وباشارة منه : ألقى أحد خاصته الشيخ في الجابية من غير إظهار تعمد. وتثاقل الحاضرون عن إخراجه . ثم أخرج، فرجع الى محله بثيابه المبتلة، فاصابته حمى مات بسببها بعد ثالث اليوم ! (1).

وقد اعتبر أحد المؤرخين ذلك القول هفوة كبرى، ودليلا على الجهل بالسياسة ، وأضاف بأنه لو قال له مثلا : « نعم ! إنما ذلك بحسن تدبيرك وحصافة رأيك الذي جعلنا نرتع في بحبوحة نعمتك. ونخدم العلم على ما يرضي الله ويرضيك » لكان الجزاء شيئا آخر.

---

1) ج . ـ 1 ـ تاريخ ابن ابى الضياف ـ ص . 162 ـ .

ومما حدث في مدة هذا الأمير : قيام ملك فرنسا – لويس التاسع – (القديس لويس – Saint Louis) بحملة صليبية على البلاد التونسية، تُعرف بـ(الحملة الثامنة). وكان غرضه إدخالها تحت سيطرة أخيه – صاحب جزيرة صقلية إذ ذاك: لتحرير سكانها النصارى، وقهر أهلها. وكان قيامه بها بتحريض وإغراء من أخيه المذكور، وتشجيع من « البابا » وبعض ملوك أوروبا.

وقد أرسى بأسطوله على قرطاجنة. وأنزل 30 ألفا من المشاة، و6 آلاف من الفرسان – وذلك في 18 جويلية سنة 1270 = آخر ذي القعدة سنة 668.

وهنالك اشتدت نار الحرب، وتعددت المعارك مدة أربعة أشهر، استبسل أثناءها التونسيون دفاعا عن بلادهم، رغم اشتداد الحر ، ورغم أنهم أخذوا على غرة. وكادوا ييأسون من النصر لولا انتشار مرض « الوباء » بين المغيرين. فهلك به ملك فرنسا والكثير من جنده. وارتحل الباقون بعد قبض غرامة. فأدركتهم ريح عاتية أغرقت سفنهم. وأهلكت كثيرا منهم.

وقد هلك ملك فرنسا في 10 محرم سنة 669 = 25 أوت سنة 1270، ودفن على هضبة قرطاجنة. فكان قبره رمزا للعدوان الفرنسي إلى أن وقعت تغطئته : بضريح أقامته فرنسا

في عهد ما قبل الحماية، باذن من الباي الثامن (حسين الثاني)— ثم بكنيسة لا تزال موجودة شيدها الفرنسيون. في عهد الحماية، وتعرف باسم «صانت لويس».

ومن غريب الاتفاق، أن أحد شعرائنا الأمجاد أنشد عند نزول أولئك الصليبيين ما يلي :

يا فرنسيس هذه اخت مصر — فتهيا لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر — وطواشيك منكر ونكير

فصدقت الأقدار، ومات ملك الفرنسيس بقرطاجنة، ودفن بها — (المؤنس — م. 137) —.

وفي البيتين تلميح الى أن ذلك الملك « لويس التاسع » كان كوّن الحملة الصليبية السابعة ، ونزل بأرض مصر سنة 646هـ. = 1248 م. ، فاندحر وتم تأسيره. فافتدى نفسه بمال كثير — بعد أن حُمل على جمل ووجهه الى خلف وطيف به، وبعد أن سُجن في دار ابن لقمان تحت حراسة طواشي — أي خصي اسمه صبيح — ورجع لبلاده خاسئا بعد أن غاب سنتين دون أن يرى القدس.

3) أبو يحيى زكرياء الأول

هو الأمير التاسع . كان يقيم بطرابلس لما بلغه صدى نقمة البلاد التونسية على الأمير الثامن « أبي البقاء خالد الأول».

فدخل البلاد التونسية. ونادى بالثورة، بعد أن إتفق مع والي قسنطينة « أبي بكر بن إبراهيم ». ولما رأى الأمير الثامن «أبو البقاء الأول» عجزه عن مواجهته ومقارعته، خلع نفسه لفائـدتـــه.

وقد بويع « أبو يحيى زكرياء » بالامارة عقب دخوله الى العاصمة — وهو طاعن في السن، لكنه كان ممن ساسوا الأمـور وجربوهـا.

واثـر مبـاشرتـه للحكـم. وممـارستــه لمخـتـلــف الشؤون واطلاعه على خفايا الأمــور. أحس بعجزه عن القيام بمهام الدولة وتسيير دواليبها، وعزم على التخلـي عــن الامــارة.

وقد ضاعف عزمه : تجدّد الاضطرابات في أنحاء البلاد — وتطاول والي قسنطينة عليه — وذلك بدخوله الى البلاد، وقيامه بجمع الضرائب في بعض الجهات من غير أن يقيم لـه وزنــا.

وإزاء ذلك خشي على نفسه العواقب، وقرر مغادرة البلاد وعندما صح منه العزم على ذلك، أخذ بما بخزينة الدولة من الأموال. وجمع ما بالمستودعات من الذخائر والتحف والنفائس وباعها. ثم جمع ما كان موجودا بالقصور مـن

الكتب وباعها. وقد تحصل مما باعه على نحو عشرين قنطارا من الذهب، سوى الفضة والدّر والذخائر.

وإثر ذلك أشاع أنه يريد القيام بجولة داخل البلاد لاستطلاع أحوالها، ثم غادر العاصمة في فاتح سنة 717 هـ. = 1317 م.، واتجه نحو مدينة قابس، ومنها سافر الى طرابلس، ثم الى مصر.

وقد أخذ معه أمواله، والذخائر التي احتفظ بها. واصطحب أهله وسائر بنيه إلا ابنه وولي عهده «محمد أبا ضربة» لانه كان مسجونا بسجن قاضي الجماعة.

ورافقه في سفره : الرحالة «أبو محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجاني» الى طرابلس، ومنها رجع الى العاصمة التي بلغت غيبته عنها 975 يوما، وألف رحلته (رحلة التيجاني).

وإثر سفر الأمير «أبي يحي زكرياء» وتحقق أهل الحال والعقد من تخليه عن الامارة، وعزمه على عدم الرجوع، بايعوا ولده وولي عهده «محمدا أبا ضربة» بعد أن أخرجوه من سجن قاضي الجماعة، فكان الأمير العاشر.

وسبب وجوده به دليل على أن والده كان يحترم القضاء — أي لا يتداخل في شؤونه، ويترك للقاضي حريته.

وبيان ذلك، أن « محمدا أبا ضربة » اتهم بجريمة قتل عمدا. فمكنه أبوه لقاضي الجماعة « أبي اسحاق إبراهيم ابن عبد الرفيع » للقصاص فحكم عليه بالموت، إذا اعترف بالقتل، وثبتت إدانته.

ولما عفا عنه أولياء القتيل – أي أسقطوا عنه الدعوى ، أبدل قاضي الجماعة الحكم : بالضرب مائة، وبالسجن مدة عام – وذلك حسب أحكام المذهب المالكي.

4) أبو حفص عمر الثاني.

هو الامير الثاني عشر.

بويع بالامارة – ولم يكن وليا للعهد، فاستقام له الأمر وتلقب بالناصر. وبعد شهرين قام عليه ولي العهد أخوه « أبو العباس احمد » وبايعه الناس، وتلقب بالمعتمد على الله. فالتحق « أبو حفص عمر الثاني » بمدينة باجة ومعه معظم الجيش. وبعد أسبوع رجع الى العاصمة وحاصرها، واستولى عليها ، وقتل أخاه المذكور ، واسترجع السلطة.

وبعد عشرة أشهر وأيام، هوجمت البلاد من طرف جيش مغربي بقيادة « أبي الحسن المريني »، الذي استضعف «الدولة الحفصية» ، وتمكن من احتلال العاصمة، ومن قتل الأمير « أبي حفص عمر الثاني » . ولكن إقامته لم تطل، لأن السكان ثاروا عليه وأجبروه على الهروب، وبايعوا « أبا العباس الفضل » فكان الأمير الثالث عشر.

5) أبو العباس أحمد الأول.

هو الأمير السادس عشـــر.

قضى على الانفصاليين، واستقامت الامور. وقد غلظ أمره وعز نصره، وسارت أساطيله تغزو في البحر وتباشر القرصنة، مما دعا جماعة من الصليبيين الافرنج، مـن أهـــل جنوة والبندقية، إلى القيام بمهاجمة مدينة المهدية بجيشهم وأسطولهم ليثأروا من القرصـان، فنازلوهـا مـدة شهـرين، أطردوا في نهايتها مـن طرف قـوات حفصية.

ومن مآثره أنه اشترى محلا أطلق عليه اسم (دار الضيوف) وذلك بثمن قدره ثلاثون ألف دينار: جمعها مـن مبلغ كراء شهرين، استخلصه من مالكي دور العاصمة التي بلغ عددها إذذاك سبعة آلاف دار.

وقد اشتراها بعد أن أبطل أحد أسلافه ضريبة النزول التي كانت تستخلص من سكان العاصمة ، وتنفق على ضيوف البلاد. وأناط تدبير شؤونها بعهدة وكيل يتولى الانفاق مـن مالية الدولة على من ينزل بها ضيفا من أبناء الملوك المسلمين وغيرهم، ومن المكلفين بمهام مختلفة من قبل ولاة أمورهم، ومن الرحالين، وغيرهم. ودام وجودها فيما أعدت لـه الى تاريخ انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد (1).

---

1) ص. 68 ـ تاريخ معالم التوحيد ـ بتصرف .

وفي أيامه أقبل « عبد الله الترجمان » وأسلم على يديه. وكان قسيسا من قسيسي النصارى. وقد أسماه العوام (سيدي تحفة)، وتوفي سنة 882 هـ. = 1477 م.، وقبره معروف بسوق السراجين بتونس. وخلف أثرا هاما هو كتاب (تحفة الأريب) في الرّدّ على أهل الصليب) (2)

6) أبو عباس عبد العزيز .

هو الأمير السابع عشر، قام بالأمر أتم قيام، إذ أرضخ الجهات المنشقة، وأخضد شوكة أهلها، ورتب الأحوال، وأصلح البلاد، وقمع أهل الفساد، وأبطل القيان، ونفى المخنثين من العاصمة، وأقام العدل بين السكان، وأنصف المظلومين من الظالمين. وغزا اسطوله صقلية، وغنم مغانم كثيرة. ونجح في ترحيل نصارى عن جزيرة جربة بعد أن غزوها ونزلوا بها.

وشيدت بأمر منه قنطرة ممتدة في طول سبع كيلومتر، تتمثل في جسر ثابت كالطريق البري، يربط جزيرة جربة باليابسة من جهة جرجيس. وقبل ذلك كان الناس لا يدخلون

2) ص . 180 ـ تاريخ ابن أبي الضياف ـ ج . ـ 1 ـ . وبها منصوص على ان الفراغ من تاليف هذا الكتاب كان سنة 823 هـ . = 1420 م . ـ .

إلا في السفن وقد خربت هذه القنطرة مع طول السنين، ووقع إصلاحها في عهد الحماية الفرنسية. (1)

وبفضل ما تقدم ذكره، ازدهرت البلاد، وبلغت شأوا بعيدا في الثورة والعمران، واعتبر الأمير «أبو فارس عبد العزيز» عضد الدولة وواسطة أمرائها.

7) أبو عبد الله محمد

هو الأمير الحادي والعشرون. ورث إرثا ثقيلاً لم يكن بوسعه أن يقوم به، ولا أن يصلح ما أفسده بعض أسلافه. وجاء بشأنه في تاريخ ابن أبي الضياف : «أتى والدولة على انقراض، بزمن الأمراض، من سد أبواب التغيير والاعتراض».

فقد كانت الثورات متوالية في عدة جهات، والبلاد هدفا للمغيرين. بعد أن استولى الاسبان على طرابلس، وعلى مدينة بجاية، وحاصروا مدينة الجزائر، واحتلوا جزيرة جربة.

ومن جراء احتلال جزيرة جربة، قاسى أهلها الأمرّين. ولكنهم كبدو الاسبان الخسائر الفادحة، وانتقموا منهم شديد الانتقام، وبنوا برؤوس وأيدي وأرجل القتلى منهم برجا كالمنارة – سمي (برج الجماجم) على الساحل الجوفي، بمرسى حومة السوق. وبقي ذلك البرج في مكانه إلى أن وقع

---

1) ص 104 – مؤنس الاحبة فى اخبار جربة .

دفنه فيما بعد، وتعويضه بنصب تذكاري لا يزال موجودا — وذلك في عهد ما قبل الحماية، باذن من الباي العاشر (أحمد الأول)، استجابة لبعض السفراء الأجانب — سنة 1265 هـ. = 1848 م. — .

كما نزل بجزيرة جربة الأخوان خير الدين باربروس، وعروج. وأصلهما من مسلمي بلاد اليونان التي كانت تحت سلطة تركيا يومئذ، واشتهرا بالقرصنة إذ كان لهما أسطول يغيران به على المراكب المسيحية في البحر الأبيض المتوسط، تحت رعاية الامراء الحفصيين الذين يقاسمونهما الغنائم والسبايا.

وقد قويت شوكتهما، وشاع خبرهما، وتوطدت الصلة بينهما وبين الأمير « أبي عبد الله محمد » الذي أباح لهما الاستمرار في نشاطهما مقابل دفع الخُمُس له.

ولما حاصر الاسبان مدينة الجزائر ، استنجد سكانها بالأخوين عروج وخير الدين باربروس، فاحتلاّها، ثم قاما بغارة على مدينة تلمسان فقتل أثناءها الأول، وبقيت مدينة الجزائر وما حولها بيد خير الدين، فأعلن ولاءه لدولة تركيا، فأمدته بقوة تمكن بفضلها من التوسع، ومن طرد الاسبان من بجاية، وأصبح واليا تركيا ببلاد الجزائر، واستغنى عن حماية الحفصيين.

وتبعا لما سجلناه، تضعضعت أركان الدولة الحفصية، ولم

يقدر الأمير « أبو عبد الله محمد » على دفع السهام المتجمعة. ولذلك يعتبره المؤرخون آخر أمراء الحفصيين.

8) الحسن بن محمد

هو الأمير الثاني والعشرون. ورث الامارة وأركانها مضعضعة، والدولة في نقص وتراجع، والبلاد ضعيفة: والتعاسة ضاربة أطنابها في ربوعها: نتيجة تعدد الثورات، وانشقاق عدة جهات — ومنها مدينة القيروان.

وفي ذاك الجو، رأى (خير الدين باربروس) — وهو يومئذ والي الجزائر — أن يغتنم الفرصة، ويستولي على البلاد التونسية. فسار بأسطوله ونزل بمدينة بنزرت واحتلها، ثم تقدم براً إلى حلق الوادي واحتلها، ثم الى العاصمة واستولى عليها بعد أن فرّ الأمير (الحسن بن محمد) — وذلك سنة 935 هـ. = 1528 م. — .

وبعد أن فشل الأمير (الحسن بن محمد) في التغلب على المهاجمين ، استنجد بملك إسبانيا (شرلكان — أي شارل الخامس)، فاستجاب لطلبه، ونزل بحلق الوادي بأسطول عظيم فيه مائة ألف مقاتل. ثم زحف على العاصمة واحتلها، بعد أن انتصرت قواته على المحتلين وأجبرتهم على الالتحاق بالجزائر.

وتبعا لذلك. استضعف (ملك إسبانيا) السلطة الحفصية. فقام جيشه باذن منه باستباحة العاصمة مدة ثلاثة أيام : بالقتل والسلب والنهب. يضاف الى ذلك أنه عاث فسادا في منشآتها وخيراتها وهجم على جامع الزيتونة. وربط خيله به. وأحرق وبدّد ما بمكتباته من المجلدات.

وإثر ذلك : تمكن (ملك إسبانيا) من فرض إرادته على الأمير (الحسن بن محمد) وتحصل منه على إمضاء معاهدة أصبحت البلاد التونسية بمقتضاها (محمية إسبانية) وذلك في 6 صفر سنة 942 = 6 أوت سنة 1535 --. (1)

وفيها اعترف « الأمير » بذلك. والتزم : بتمكين الاسبان من الاقامة أينما شاءوا بالبلاد -- ومن إقامة طقوسهم الدينية بحرية تامة -- وبالتنازل عن حلق الوادي وبنزرت -- وبدفع غرامة قدرها 120 ألف فرنك ذهبا.

وإثر ذلك، احتل الاسبان سواحل البلاد -- وخاصة : حلق الوادي، وبنزرت، وسوسة، والمنستير، والمهدية، وصفاقس، وقرقنة، وجربة وطرابلس، ورجع ملكهم الى إسبانيا مع بقية قواته.

وقد قام الاسبان بعدة تحصينات. فأنشأوا قلعة حربية بكل

---

1) ص . 199 ـ تونس عبر التاريخ

من جزيرة شكلي، وبنزرت، وبرج زوارة، والمنستير — وبرجا حربيا بالمهدية، وحصنا بقليبية.

أما حصن جزيرة جربة، الموجودة آثاره على ساحلها القبلي، والمعروف باسم (البرج الكبير أو قصطيل الواد)، فقد بنوه بها عندما احتلوها سنة 688 هـ. = 1289 م. في مدة الأمير الخامس « أبي حفص عمر الأول »، ووقعت محاصرته والتغلب على حاميته سنة 738 هـ. = 1337 م. ، في مدة الأمير الحادي عشر « أبي بكر بن أبي زكرياء » (1).

وفي ذلك الجو، قام الأمير « الحسن بن محمد » بمهاجمة القيروان لارجاعها الى الجادة. فانهزمت قواته، وبقيت القيروان على انشقاقها تحت إمرة شيخ الطريقة الشابية « الشيخ عرفة ».

أما المعاهدة، فقد قوبلت بالامتعاض التام، إذ لم ترق في أعين السكان. وساءت الاحوال إثر احتلال سواحل البلاد، فتجددت حوادث المقاومة، وردود الفعل بصورة يطول شرحها ولا يتسع المجال لبسطها، واشتد الغضب على الأمير « الحسن بن محمد » وثار السكان عليه، وباعانة ولده « أبي العباس أحمد » سملوا عينيه، فصار أعمى — وذلك سنة 950 هـ. = 1543 م. — :

---

1) ص . 102 — مؤنس الاحبة في اخبار جربة .

وبعد مدة قضاها بالعاصمة تحت رقابة ابنه المذكور، فرَّ الى القيروان وأقام بزاوية « الشيخ الجديدي » حيث توفي(2).

وأثناء إقامته هنالك دخل عليه ذات يوم بعض أولاد « الشيخ عرفة »، وناولوه عودا وقالوا له : نريد أن تسمعنا من غنائك بالعود ! وألزموه ذلك استخفافا به ! فأخذ العود وجسه بيده وقد كبُر عليه إقدامهم بما لا يليق بمثله، فأنشدهم هذا البيت :

وكنا أسودا والرجال تهابنا   أتانا زمان فيه نخشى الارانبا

وألقى العود من يده، وجهش بالبكاء. فخرج الأولاد من بين يديه لا يدري أحد منهم أين يضع قدمه. — « المؤنس — ص. 167 و 168 ».

9) أبو العباس أحمد الثاني

هو الأمير الثالث والعشرون، ويدعى « حميدة ». بويع بالامارة خلفا عن والده « الحسن بن محمد » والأمور متداعية، والبلاد على حالة فوضى، والانقسامات متعددة، والحوادث متجددة، والأحوال مختلة. فاستضعف البلاد أهل نابلي وجنوة، وغزوا مدينة المهدية ونهبوها، وهدموا سورها، ثم أقلعوا — وذلك سنة 957 هـ. = 1550م. وغزا القائد التركي

2) ص . 15 — ج 2 — ابن ابى الضياف .

« درغوث باشا » بقواته طرابلس. وانتزعها من الاسبان الذين كانوا يحتلونها، وأصبح واليا عليها – وذلك سنة 958 هـ = 1551 م.. وهاجم أهل نابلي وجنوة بعد سنتين جزيرة جربه واحتلوها، وامتلأت أيديهم من مغانمها؛ فأطردهم منها « درغوث باشا » بعد أن مكثوا بها ستة أشهــر.

واستنجد أهل القيروان « المنشقّة » بوالي طرابلس (درغوث باشا) ضد الشابيين الذين كان يتزعمهم (الشيخ أبو الطيب) ، فأنجدهم وقضى على الشابيين سنة 966 هـ = 1558 م.، حسبما يأتي خبره في إبانه. وخلف حامية عسكرية على رأسها قائد تركي يدعى (حيدر باشا) الذي كون جيشا انضمت اليه عناصر مختلفة – حسبما يأتي خبره.

وتشجع السكان، فازدادوا تمردا، وقاسوا الأمرين من الاسبان الذين اقترفوا معهم مختلف الفضائح، وعاملوهم معاملة جور، وانتقموا منهم بتهديم الحنايا المجلوب عليها الماء من زغوان فأصبحت المياه ضائعة تسقي بساتين زغوان وغيرها. « ص. 453 – تونس عبر التاريخ » وتطاولوا على المساجد وهتكوا حرمتها. واغتصبوا جامع باب البحر بتونس وجعلوه مستودعا لذخيرتهم. وعاثوا فسادا في زاوية الشيـخ « محرز بن خلف » ونبشوا ضريحه.

وأثبت أحد الشيوخ في تقرير رسمي(1) : « أن الاسبان حيوانات ضارية في صورة آدميين. فمن قبائح فعلاتهم مع التونسيين. وعبثهم في البلاد : أن ربطوا خيولهم بجامع الزيتونة الأعظم، وحفروا حفرا صغيرة في بلاط صحنه كي لا تعثر بهم خيولهم. واستباحوا ما بالجامع من الكتب العلميه. فداسوها بخيولهم بعد أن ألقوها بالطرقات ومزقوها بسيوفهم، وغير ذلك من أفعال الحيوانات العجم ».

ومن جهة أخرى، شيدوا حصنا اشتهر باسم (الباستيون) خارج باب البحر بالعاصمة حيث السفارة الفرنسية حاليا. وجددوا بناء الحصن الذي كان بوسط بحيرة تونس. ورمموا حصن حلق الوادي وأسوارها.

وقد اعتبر السكان تلك الأعمال تحديا لهم. واشتد غيضهم. وامسوا ناقمين على الاسبان والأمير الحفصي معا. وفقدت البلاد أمنها وسلامها، من جراء حوادث المقاومة الشعبية وردود الفعل الاسبانية. وفقد الجيش الحفصي معنوياته. وضعفت قواه، واعتراه الفشل، وتفككت عناصره، وتشتتت شمله.

---

1) حرره الشيخ احمد بن الخوجة فى احوال جامع الزيتونة قبيل وفاته سنة 1313 هـ . = 1895 م . المصدر : كتاب تاريخ معالم التوحيد ـ ص . ـ 14 ـ .

وإزاء ذلك، تولى الأمير «أبو العباس أحمد» تأليف جند ملكي جديد : من فرقة للمشاة من السودانيين، وفرقة للفرسان من البدو تعدُّ ثلاثة آلاف – عرف باسم «زمازمية».

وقد واجه به قوات تركية هاجمت البلاد سنة 977 هـ. = 1569 م.، بقيادة والي الجزائر الجديد «علي باشا» الذي خلف «خير الدين باربروس» بعد وفاته.

فانتصر المهاجمون، واحتلوا العاصمة، وانضم إليهم «الزمازمية» بعد أن فر الأمير «أبو العباس أحمد» الذي استنجد بملك إسبانيا. فأنجده بأسطول عظيم على شرط يقتضي الاشتراك في الحكم والجباية، فرفض قبوله، وارتحل الى جزيرة صقلية، وبقي بها الى أن توفي، فجيء به الى تونس، ودفن بزاوية الشيخ قاسم الجليزي. «ص. 18 – ج 2 – ابن أبي الضياف».

10) محمد بن الحسن

هو الأمير الرابع والعشرون – وآخر الأمراء الحفصيين.

رضي بالشرط الذي رفض أخوه قبوله، وتقاسم السلطة مع نائب ملك إسبانيا، وتمكن الاسبان من رد هجوم المغيرين، ومن الاقامة بالبلاد، وتحمل السكان من جراء تصرفاتهم جورا لا يوصف، وقابلوها بردود فعل مشرّفة.

غير أن مدة إقامتهم لم تطل، ولم ينفعهم طغيانهم.

ذلك أن (حيدر باشا) الذي بقي بالقيروان، وأسلفنا القول بشأنه، تخابر مع قائد الحماية التركية بطرابلس، واتفقا على مهاجمة العاصمة التونسية، وعلى أن يلتقيا بقواتهما بضواحيها.

وفعلا، التقيا على رأس قواتهما بالمكان المسمى اليوم ب(المحمدية.) وهنالك قويت عزيمتهما، إذ علما بقدوم (سنان باشا) وزير السلطان العثماني الحادي عشر (سليـم الثاني) في البحر على رأس قوات عثمانية مـن تـركيـا.

وحسب خطة تم تسطيرها، هاجم كل من جهته القـوات الاسبانية، بحلق الوادي والعاصمة، بمشاركة السكان الذين انضموا إليهم. فكان النصر حليفهم، وتشتت شمل الاسبان، والتحق الاحياء منهم ببلادهم، وأخذ الأمير (محمد بن الحسن) أسيرا إلى تركيا.

وهكذا سقطت الدولة الحفصية، وتخصلت البلاد مـن الحماية الاسبانية، وأصبحت تحت حكم الدولة التركية (إيالة عثمانية ـ وذلك في 6 جمادى 1 سنة 981هـ. = 3 سبتمبر سنـة 1573 م. — .



اسطـــــر لاب خفصـــــى

الفصـــل - 7 -

الحياة الثقافية

في هذا العهد نهضت الثقافـة نهضة لم يشهدها المغرب العـربي مـن قبــل، فقـــد :

- انتشر التعليم بالبلاد بواسطة الكتاتيب، والمدارس، والجوامع، والزوايـا.

- وانتشر بالعاصمة بمثل ذلك، وبواسطة مدارس رسميـة كثيرة وقع تأسيسها - ومنها : مدرسة بالقصبة، في البلاط الحفصي - مهمتها العناية بأبناء الأمراء، وتكوين مستخدمي الدولة. ومنها : مدرسة التوفيق، والمدرسة العنقية، والمدرسة المنتصرية، والمدرسة الشماعية، والمدرسة المرجانية، والمدرسة العصفوريـة.

وقد جلب لها الأمراء الأساتذة من الأندلس ومن طرابلس وغيرهما. وأسكنوا بها الطلبة، وقاموا باطعامهم، وكونوا لهم بهـا المكتبات، فقامت بأكبر قسط في تكوينهم تكوينا جامعيـــا.

ذلك أن مناهج الدراسة فيها كان يرتكز على جمع عناصر الثقافة المفننة في وحدة تكاملية امتزاجية، تتولد عنها ملكة راسخة، تُمكن الخريج من معالجة المباحث للتحقيق والتوليد والابتكار، بالتخصص المبني على المشاركة الواسعة، إذ لم تكن العلوم نقلا وتلقينا، بل كانت تكوينا وتوجيها لتوسيع نطاق المعارف، بالبحث والانشاء والتحرير. (1).

– وانتشر أيضا بواسطة جامع الزيتونة الذي رسخ التعليم به، وتشعشعت أنواره، وتطور شيئا فشيئا حتى صار فيما بعد أكبر جامعة إسلامية عرفتها بلاد المغرب العربي بأسرها، وأنبتت علماء أفذاذا في مختلف المجالات.

وقد انتظم التدريس به، وبتلك المدارس والجوامع والزوايا، وتكاثرت الدروس – وخاصة في علوم اللغة والشريعة والفقه والحديث والتفسير وغيرها، ولم يتقاصر أمرها إلا في عهد الحماية الاسبانية.

وعمت الثقافة البلاد بفضل ذلك، وبواسطة المكتبات الكثيرة التي أُنشئت – ومنها : مكتبات قصور الأمراء، وخاصة مكتبة قصر الامارة بالقصبة التي جمع بها أنفس المجلدات – ومنها : مكتبة جامع الزيتونة المسماة ب(العبدلية) التي

1) كتاب اعلام الفكر الاسلامي – ص . 65 – .

اشتملت خزائنها على أنفس الكتب، وبلغ عددها 36 ألف مجلد في القرن الثامن الهجري = 15 ميلادي.

وتبعا لما سبق، وبفضل تنشيط بعض الأمراء للعلم وذويه وللأدب والشعراء – وبفضل ما أوقفه أهل البر والاحسان من الأرزاق الجارية، وقع الاقبال على طلب العلم، وازدهرت الثقافة، وانتعش الأدب، ونشطت حركته، وارتقى الطب الذي حمل لواءه خريجو المدرسة الصقلية والمدرسة الانداسية، وازدهر علم الفلك ، واستعمل في تعليمه « الاسطرلاب » الذي وقع صنعه محليا – وذلك لمعرفة : مواقع الكواكب ومدى ارتفاع الثابتة منها والسيارة – ومقدار الارتفاع بين الأمكنة – وخطوط الطول والعرض للبلدان – وأوقات الصلاة. وعدت البلاد نهضة علمية مباركة في مختلف الميادين، وأصبحت أمَّ البلاد المغربية وقطبها الأكبر بلا منازع.

ومن مظاهر تلك النهضة ازدهار النثر الفني الذي امتازت به رسائل ذلك العهد . كما ازدهر الشعر، وخصوصا الشعر المرتجل في المناسبات .

وساهم في تلك النهضة بقسط وافر مهاجرو الأندلس والمثقفون. وكان بلاط الأمراء عامرا بالشعراء والادباء والظرفاء. وكانت الندوات الأدبية والعلمية تنعقد في كثير من بيوت الأمراء والأعيان، بضواحي العاصمة، في إطار فني يعتبر من بعض جوانبه نسخة من الحضارة الاسلامية بالاندلس.

— وفي ميدان الفن، انتعشت الموسيقى التونسية بالنوبة الغرناطية منذ قدوم مهاجري الأندلس. واشتغل الناس بالتواشيح، والأشغال الأندلسية، وألفوها حتى عرفت بـ(المالوف). وبذلك ارتقى الفن.

يضاف إلى ذلك:

— أن عادة الغناء، وضرب الطبل، ونقر المزمار، في حفلات الأفراح، كانت منتشرة بين السكان.

— وأن قصور الأمراء لم تخل من عود، ومزمار، ومغن، ومغنية — وبالأخص في مدة الأمير الثالث عشر «أبي العباس الفضل».

وقد نقل «محمد الوزان» بشأن أحد الأمراء وعاداته ما يلي:

«..... ويستعمل قسما من ماله في بناء القصور والمعالم، حيث يعيش مع المغنيين والمغنيات، متنقلا بين آونة وأخرى من منتزه الى منتزه. وإذا أراد أحد المغنين أن يغني في حضرته عصبت عيناه ....»

وروى «الزركشي» في كتابه (تاريخ الدولتين: الموحدية، والحفصية): أن الأمير السابع عشر «أبا فارس عبد العزيز» رفع عن المغنيات المجابي والمغارم التي كُنّ ملزومات بها من قبل.

ومن جهة اخرى، فان الجيش كانت له فرقة فنية يعرف أصحابها ب(أصحاب النفير) سبق لنا التعرض لها ضمن الجيش. وكان المؤذنون بجامع الزيتونة ينفخون، بأسلوب فني في أبواق، قبيل فجر كل ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم، لينبهوا الناس أن وقت السحر قد حان، وعليهم تناول السحور – (ورقات – 2 – ص. 233 و 234).

– وأشهر علماء هذا العهد :

– ابن خلدون ولي الدين أبو زيد عبد الرحمان – في التاريخ والاجتماع. وهو أبرز شخصية أنجبتها البلاد بكونه أول واضع لعلم الاجتماع، وأول من طرق علم التاريخ بتجرد ورأي ثاقب.

– أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، في التاريخ وقد ترك أثرا هاما – وهو « رحلة التيجاني » التي ضمنها تاريخ معظم مدن البلاد التونسية وقراها، وتحدث فيها عن مشاهداته اثناء الرحلة التي قام بها – برفقة الأمير الحفصي التاسع « أبي يحي زكرياء الأول » سنة 717 هـ. = 1317 م. –، والتي أسلفنا القول بشأنها.

– الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر، في التاريخ. وقد ترك كتابه « تاريخ الدولتين » الذي استعرض فيه تاريخ الموحدين والحفصيين، وطبع لأول مرة بتونس سنة 1289 هـ. = 1872 م. –.

– ابن أبي دينار القيرواني، أبـو عبد الله محمد، فـي التاريخ. وقد ترك أثرا أكسبه شهرة كبيرة – وهو كتاب « المؤنس » الذي ضمنـه تاريخ إفريقيـا وتونس، وطبع لأول مرة بتونس سنة 1286 هـ. = 1869 م. – .

– الامام محمد بن عرفة في الفقه – وأبو إسحاق ابراهيم بن عبد الرفيع في القضاء – وابن الشباط محمد بن علي التوزري في العلوم والقضاء، وخاصة بتوليه قسمة ميـاه عيـون الجريد علـى غابـة نخيلها. وأحمد الخولاني، وابن الحشاء، وعبد القاهر التونسي، فــي الطــب.

– وأشهر أدباء هـذا العهــد :

– أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الرعيني السوسي. وكان يسمى ملحق الاباء بالأبناء، لطول عمره وقـدم مـولده . وتوفي بالعاصمة سنة 662 هـ. = 1263 م. ، في مدة الأميـر الثاني (محمد المستنصر بـاللـه). وله شعر حسن والموجود منه قليل. ومنه قـولـه :

عكفنا على الكاس فى جنــة   نحــاكى بها ميــل أغصانها
ورسل النسيم بهــا سحــرة   تحرش مــا بيــن ريحانهــا
اظــــن تغاريد الحانهــا   زهتهــــا فاصغـت بآذانها

– محمد بن أحمد التجاني (والد الرحالة أبي محمد عبد الله). وكان أديبا ضليعا يقرض الشعر الطيب بالمناسبات – ومنـه أبيات بعث بها، من العاصمة الى ابنه المذكور، أثناء قيامه

برحلته، ووصلته أثناء إقامته بمدينة قابس — ونصها :

حملتم القلب اذ جد الرحيل بكم
من الصبابة ما لا تحمل الابل
فلو سلكتم سبيل الحزم ما عجزت
اذ ذاك مني عن دفع النوى الحيل
لكن عراني ذهول يوم بينكم
كما يكابد من احبابه رحلوا
فالله يجمع منا الشمل عن عجل
فالخير اجمل ما في نيله العجل

— واشهر الفنانين في هذا العهد :

— الشيخ محمد الظريف. وهو ممن سلك طريق التصوف. وكان بارعا في جملة فنون منها الموسيقى. وله أشعار رائقة، في تهذيب الأخلاق، والمواعظ، وخصوصا في وصف الطبيعة، ومن جملتها : قصيد أورد فيه سائر المقامات الغنائية، ويعرف بناعورة الطبوع — أي أدوار الألحان المشهورة في وقته بأسمائها المغربية.

— الأمير الثالث عشر « أبو العباس الفضل ». وقد كان أركن الأمراء الى صحبة أرباب صناعة الغناء، واللهو، والمضحكين، ومن اليهم، حتى قيل فيه :

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
اما ترى الشمس في الميزان هابطة
لما غدت بين برج اللهو والطرب

– أبو عبد الله محمد بن عميرة، وقد كان ذا صوت مطرب، وتلاحين لطيفة، ومرموقا بين الخاصة والعامة بالتقدير والتكريم.

– الأمير الثاني والعشرون « الحسن بن محمد ». وقد كان بارعا في الغناء والضرب على العود، وسبق الكلام عنه في الموضوع.

– الأمير الأخير « محمد بن الحسن » وقد كان أبرع ضراب للعود ، ومن أقدر المتصرفين في أنواع الغناء.

– هذا ومن الملاهي ووسائل التسلية التي كانت موجودة إذذاك : المقاهي الأدبية والصوفية – وألاعيب خيال الظل – وتدخين لحاء القنب، وهو ما يفتل منه اليوم حبال وخيطان ويعرف باسم « القرنب = (chanvre) ».

الفصـــل ـ 8 ـ

الحياة الاجتماعية

في هذا العهد. تمكن الأمراء من بسط سلطانهم على البلاد بصفة عامة، ومكنوا لأنفسهم في بعض المدن الهامة بصفة خاصة ـ على الرغم من تعدد الثورات. وبذلك كان الحكم أوطد وأزهر مما كان عليه في العهود السابقة ـ خاصة في مدة الأمراء الأولين.

وكانت عناصر الشعب تتكون من البربر والعرب الذين وحد بينهم : الدين الاسلامي، واللغة العربية، وانتسابهم الى بلاد المغرب العربي، وامتزجوا بالمصاهرة. وجميعهم سنيون مالكيون.

ومُساكنوه هم :

ـ اليهود، وهم أهل ذمة كانوا يدفعون الجزية الى الخزينة التونسية عن طيب خاطر، ويعمُرون بالعاصمة حيا خاصا، أنشأه لهم « الشيخ محرز بن خلف » في العهد الصنهاجي،

يعرف بـ(الحارة)، ويتمتعون بكثير من أنواع التسامح الديني فيقيمون شعائرهم الدينية في أمن ودعة.

– والنصارى، وهم أروبيون جلبهم الى البلاد مغنطيس الأمن والعدل للاتجار. وكانوا يرجعون في غالب أمورهم الى كبارهم، ويعمرون بالعاصمة خارج باب البحر فنادق خاصة، تحولت فيما بعد الى مساكن، تكوّن منها ربض خاص، كان الصورة الأولى للحي الأروبي أو المدينة الحديثة، وامتاز برحبات واسعة كان الناس يبيعون فيها ويشترون.

– والرقيق، وكانوا يكوّنون طبقة كبيرة، ولم ينظر غيرهم إليهم نظرة امتهان وازدراء. وكانوا يباعون ويشترون بالعاصمة في سوق البركة المعد اليوم للصياغة.

– وبعض مهاجري الأندلس، وكانوا يعمُرون بالعاصمة وبنزرت وغيرهما أحياء خاصة نسبت إليهم. وقد نقلوا الى البلاد تقاليدهم وصناعاتهم وحرفهم ومعائشهم، واشتهر من بينهم كثيرون في مختلف المجالات – ومنهم : ابن الأبار – وابن الغماز – وبنو عصفور – وبنو خلدون.

وكان سلوك الأمراء نحو السكان في جملته حسنا ولينا. فقد أسدى أغلبهم لهم كثيرا من الأعمال الطيبة، وأسقطوا عنهم الضرائب أكثر من مرة، وأنشأوا لفائدتهم كثيرا من المشاريع التي جلبت لهم الرفاهية، وعادت عليهم بالنفع العظيم، وازدهر بها العمران – ومن ذلك :

– إحداث سقايا بالعاصمة وببعض المدن – ومنها : سقاية شرقي جامع الزيتونة.

– وإنشاء عدد كبير من الصهاريج والموارد السابلة، وحفر الابار، وتنظيم توزيع المياه بواسطة الخزانات.

– وتشييد أو تجديد أو ترميم الاسوار والقناطر والحصون ومنها : قنطرة وادي النصل بهرقلة، وحصن بالعاصمة.

– وإنشاء الأسواق والحمامات بالعاصمة، وبمدن سوسة والمنستير وصفاقس. وسنقتصر على ذكر بعضها نظرا لكثرة عددها.

– وبناء أو ترميم المدارس والجوامع والمساجد بالعاصمة وغيرها. ونظرا لكثرة عددها سنقتصر على ذكر بعضها في الفصلين 7 و 12.

– وإحداث عدة محارس في الثغور البحرية للمرابطة، وعدة زوايا في الطرقات لأبناء السبيل – ومنها : زاوية بعين الزميت بين تونس وباجة، وزاوية الفندق قبلي جبل زغوان، وزاوية قرباطة بين قفصة وتوزر.

– وبناء عدة كتاتيب، وتشييد ميضاة بسوق العطارين حذو المكتبة الخلدونية.

وكان من نتائج انتشار العدل في مدة معظم الأمراء أن أقبل الناس على العمل، فنمت الثروة العامة، وارتفع مستوى

العيش، وأينعت الحضارة بالعاصمة وبأغلب المدن، حيث كثر ترف السكان، وتأنقوا في الملابس والماعون والانية والمراكب وتعددت مظاهر الرقي.

وتبعا لذلك، نشطت حركة المباني نشاطا ملحوظا بيد أنها لم تكن واسعة النطاق. وبفضلها بلغ عدد المنازل بالعاصمة وحدها سبعة آلاف سنة 763 هـ. = 1361 م. حسبما نقل عن ابن الشماع – وبلغ عددها عشرة الاف سنة 922 هـ. = 1516 م. حسبما نقل عن الزياتي.

والملاحظ: أن أغلب تلك المساكن كانت صحية: وتشتمل على آبار ومواجل. وأدى اعتناء السكان بالنظافة الى الاكثار من تشييد الحمامات، والتفنن في إتقان بنائها ونظافتها – ومنها: حمام الرميمي.

وإثر قدوم مهاجري الأندلس الذين ساهموا في النهوض بالبلاد وترقيتها، وازدهار حضارتها، أصبح تأثر السكان شديدا بالفن المعماري الأندلسي في تصميمه ونقشه وتجليزه.

– وأنشأ الأمراء قصورا مشتملة على بساتين – أشهرها: قصر باردو، وبرج السلاسل بالمرسى، وقصر رأس الطابية، وقصر أبي فهر قرب أريانة الذي وصفه ابن خلدون في تاريخه (1) بما يلي:

(1) ج. – 1 – ص – 412 – طبع الجزائر

« واتخذ (محمد المستنصر بالله) خارج العاصمة، القصر الطائر الذكر المعروف بأبي فهر – يشتمل على جنات معروشات، اغترس فيها من شجرة كل فاكهة، من أصناف التين والرمان والنخيل والأعناب، وسائر الفوكه، وأصناف الشجـــــر.

ونضد كل صنف منها في دوحة، حتى لقد اغترس من السدر والطلح، والشجر البري، وسمى دوح هذه بـ(الشعراء).

واتخذ وسطها البساتين والرياضات، بالمصانع والحدائق، وشجر النَّوْر والنزه من الليم والنارنج والسرْو والريحان، وشجر الياسمين والخيري والنيلوفر وأمثاله.

وجعل وسط الرياض روضا فسيح الساحة، وصنع فيه للماء حائزا من عداد البحور، جلب إليه الماء في القناة القديمة التي كانت مابين عيون زغوان وقرطاجنة. متى تنبعث من فوهة عظيمة الى صهريج عميق المهوى، رصيف البناء، متباعد الأقطار، مربع الفنا، مجالل بالكلس، فيفهق حوضه، وتضطرب أمواجه، تطرقه الحضايا عن السعي بشاطئه لبُعد مداه، فيركبن في الجواري المنشئات ثبجه، فيتبارى بهن تباري الفتح.

ومثلت بطرفي هذا الصهريج قبتان متقابلتان كبرا وصغرا على أعمدة المرمر، مشيدة جوانبها بالرخام المنجد، ورفعت سقفها من الخشب المقدر بالصنائع المحكمة، والاشكال المنمقة، الى ما اشتمل عليه هذا الرياض من المقاصير

والأواوين والحوائز والقصور، غُرفا من فوقها غرف تجري من تحتهـا الأنهـار.

ثم وصل (محمد المستنصر بالله) ما بين قصوره ورياض « رأس الطابية » بحائطين ممتدين يحوزان عرض العشرة أذرع، يحتجب به الحرم في خر وجهن الى تلك البساتين، حتى لا تقع العيون عليهن – فكان ذلك مصنعا فخيما، وأثرا على أيام الدولة خالدا ». (تاريخ ابن خلدون – ج –1 – ص: 412 – طبع الجزائر).

– وتبعا لما سبق، نضيف أمورا تتعلق بالعاصمة، وببعض المدن، وبجزيرتي قرقنة وجربة، تنير الحياة بها، وتعطي صورا مصغرة عما جدّ بها من حوادث مختلفة في ذلك العهد.

من ذلك، أن غالب سكان مدينة تونس كانت لهم بضواحيها حدائق جميلة وبساتين يانعة، يخرجون اليها بعيالهم، زمن الصيف والخريف.

وكانت عندهم مدة عيدي الفطر والأضحى خمسة عشر يوما، تغلق أثناءها الأسواق، ويستعملون فيها أنواعـا كثيرة من الأطعمة الفاخرة، والحلويات اللذيذة – ومنهـا: المقروض. واعتادوا أكل الدجاج والدويدة في التاسع من شهر محرم الحرام، والتوسع في النفقة من أطعمة وفواكه في العاشر منه – أي يوم عاشوراء الذي كانوا يخرجون فيه زكاتهم.

وكانوا يحتفلون بالمولد النبوي الشريف، ويتناولون الأطعمة الفاخرة أثناءه، ويحيون ليلته بتلاوة الأشعار والأناشيد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعظمون ليالي النصف من رجب الأصب، والسابع والعشرين منه، والنصف من شعبان الأكرم – وكذلك شهر رمضان المعظم حيث يتلون ختم القرآن الكريم في لياليه في غالب الجوامع والمساجد.(1)

– ومن ذلك، أن مدينة القيروان سارت في طريق البؤس، بعد أن فارقها أكثر أبنائها، وأصبح أكثر سكانها من الفلاحين البدو الذين لجأوا اليها. ثم رجع اليها بعض أبنائها، ولكنها ظلت على بؤسها، وجار الأمراء عليها، فانشقت حسبما سبقت الاشارة الى ذلك. وجعلت منها (فرقة الشابية) عندما كان يتزعمها (الشيخ عرفة) مركزا دينيا وسياسيا نشيطا، وتمكن أتباعها من الانتصار على الأمير الثاني والعشرين (الحسن بن محمد)، وبقوا على انشقاقهم الى أن حوربوا وهزموا وفروا حسبما سنوضحه. وإثر ذلك أخذت تضمد أجراحها، وأخذ عدد سكانها في الزيادة.

– ومن ذلك، أن مدينة المهدية كانت محظوظة، إذ كان ولاتها يختارون في الغالب من بين أبناء الأمراء. وكانت الحياة بها مزدهرة، بفضل نشاط القرصنة المستمر الصادر

---

1) المؤنس – ص . 305 – .

عنها، الذي أدى الى مهاجمتها مرارا من طرف عدة مغيرين، فقاومت حسب استطاعتها.

وعندما احتلها الاسبان عاثوا فيها فسادا وقتلا وتخريبا، وأحرقوا أكثر معالمها الأثرية – ومن بينها : جامع عبيد الله المهدي. فقد هدموه، وقتلوا وأحرقوا من كان فيه من المرابطين، وردموهم، حسبما شهدت بذلك الجماجم والعظام التي وقع العثور عليها أخيرا، أثناء القيام بتجديد بنائه. ومن جراء ذلك الاحتلال قاسى أهلها الأمرين الى أن تخلصت البلاد من الاسبان فنهضت من كبوتها.

– ومن ذلك : أن مدينة بنزرت كانت أحوالها راكدة على الرغم من نزول بعض مهاجري الأندلس بها وبناء ضاحيتهم فيها. واتخذتها حملة فرنسية جنوية هدفا، ولكنها لم تنجح وعجزت على الاستيلاء عليها. وكانت معقلا للقراصنة ونقطة انطلاق نحو صقلية وإيطاليا، وتجمع بها في وقت ما عشرون ألف أسير نصراني. وخضعت لخير الدين باربروس، ثم احتلها الاسبان ووضعوا حامية بها، وخربوا حصونها؛ ثم أعادوا بناءها، وشيدوا قلعة أسموها « قلعة إسبانيا » ونال السكان منهم ما نال غيرهم من العسف والظلم والطغيان، الى أن انتصر الاتراك، فأخذت بلادهم تضمد أجراحها.

– ومن ذلك، أن مدينة المنستير انتقصت أهميتها بانتقال مركز الحكم من المهدية الى تونس. ورغم ذلك كانت

للأمراء عناية خاصة بها، وشوق عظيم لزيارتها. واهتموا بشأنها، فأدخلوا بعض التحسينات على رباطها، ورمموا سورها، وبنوا باب الدرب فيه، وشيدوا بعض المساجد بها. ولم يفلت سكانها من عسف وظلم وطغيان الاسبان عندما احتلـــوهـــا.

– ومن ذلك، أن مدينة سوسة امتازت بأن كان ولاتها مـــن العائلة الحفصية المالكة. وكانت الحياة بها نشيطة، إذ انتشرت بها الثقافة وانتعش الأدب، وتعددت ديار النزهة علـى شـاطئهـا، وارتقت الصناعة، وانتظم أمر التجارة، وأينع الاقتصاد، وندت صادراتها الى بلدان البحر الأبيض المتوسط – وبذلك كله استعادت زهرتها، وبلغت قمة مجدهـــا.

وقد زارها الرحالة « أبومحمد عبد الله بن محمد بن احمد التجاني »، وتحدث في رحلته عنها قليلا، وعـــن أدبائها كثيرا، وأثبت أن الثياب الرفيعة تصنع بها، وأن المسافرين يقصدونها من الافـاق.

وانشقت أيضا. ولم ينج سكانها من عسف وظلم وطغيان الاسبان عندما احتلوها.

– ومن ذلك، أن مدينة صفاقس كانت مركزا اقتصاديا له شأنه. وكانت مرفأ هاما يصدر منه الزيت. واشتهرت بصناعة النسج . وكان السمك وسيلة من وسائل ارتزاق

أمنها. واحتلها الاسبان فلم يفلت أهلها من عسفهم وظلمهم وطغيانهم.

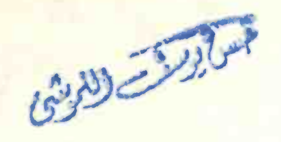
– ومن ذلك، أن مدينة قابس وصفها الرحالة « التجاني » في رحلته بأن مظاهر الانحطاط كانت بارزة بها، وأن أحوالها كانت سيئة.

– ومن ذلك، أن مدينة توزر امتاز أهلها بالتمرد. وكثيرا ما أجبروا الأمراء على امتشاق الحسام لردهم الى طاعتهم. وكثيرا ما اختل أمنها بما كان ينشب بين أهلها والقبائل المجاورة لها من قتال.

– ومن ذلك، أن جزيرة قرقنة أضاعت بعض ما كانت عليه من الخصب، تبعا لضعف موارد أبنائها – إذ لم يتمكنوا من نفع الدولة بمواهبهم في ميدان الأسطول.

وقد هاجمها الاعداء – ومنهم الصقليون – ثلاث مرات، فقاسى أبناؤها من جراء ذلك الأمرين. ثـم احتلها الاسبان، واضطهدوا أبناءها الى أن انتصر عليهم الأتراك، وأصبحت البلاد تحت الحكم العثماني.

– ومن ذلك، أن جزيرة جربة كانت – في المدة الأولى من هذا العهد – تحت سلطة الدولة الحفصية، يتداول على تسيير شؤونها ولاة من قبلها. ثم جدت بها حوادث كثيرة سبق لنا إثبات بعضها مع آثار الاسبان التي بقيت بها،



والتي نضيف إليها أثرا آخر للأتراك، وهو جامع ذو منارة مستديرة الشكل لا يزال قائم الذات بحومة السوق، ويعرف بجامع الاتراك.

والجدير بالذكر، أن الحياة الاجتماعية تشمل فضلا عما تقدم – ما يتعلق بالمرأة، والبريد والصحة والأمن، وقد خصصنا لذلك الفصلين الموالين.

قبة زاوية الشيخ قاسم الجليزى



اثر حصن حفصي بتونس

الفصـــل ـ 9 ـ

المرأة

نهضت المرأة عما كانت عليه وأصبح حظها موفورا. ويرجع فضل النهوض بشأنها إلى الأميرات الحفصيات، اللائي كان لهن الحظ الأوفر والسعي الأكبر في تشييد المدارس، التي انتشر بسببها التعليم للبنين والبنات، وراجت سوق العلم والأدب. ومنهـا :

1) مدرسة التوفيق ـــ التي لا تزال موجودة بحي معقل الزعيم بتونس. وكانت أول مدرسة مستقلة، أسستها على نفقتها الأميرة (عطف) زوجة «أبي زكرياء يحي» مؤسس الدولة.

وقد رصع ذكراها أمير شعرائنا المرحوم محمد الشاذلي خزندار بقـولـــه :

ان غاب شخصك يا ذات الجـلال فمـا
غـابت مآثـــرك البيضـا اياديهـــــا
فى تونس ظهـرت اولـى المدارس عـن
يديك تستمطر الـرحمى لبانيهـــــا

مرت بهــا النــاس اجيــالا وذكــرك فــى

افواهها يتفشى بالدعا فيهـــــــــا

2) والمدرسة العنيفة – التي لا تزال قائمة الذات بنهج عنق الجمل بتونس. وقد أسستها على نفقتها الأميرة (فاطمة) شقيقة الأمير الحادي عشر « أبي بكر بن أبي زكرياء ».

وقد تعزز جانب هاتين المدرستين بمدارس أخرى أسسها الأمراء، وسبق ذكرها، وقامت جميعها بأكبر قسط في تكوين طلبتها تكوينا جامعيـا.

وبالاضافة الى ذلك، فقد ساعد على ترقيـة مستـوى الحياة العائلية في أوساط الأمراء وأقاربهم، وفي أوساط الذين كانت لهم صلة بهم : أمهات وزوجات أكثر الأمراء اللائي كن نصرانيـات وجلبن معهن كثيرا من التقاليد الطيبة، وأساليب العيش والتربية والتهذيب، ودخلن في الاسلام عن طيب نفس، وأبدلن أسماءهن، ومن بينهن والدة الأمير التاسع عشر « أبي عمر عثمان » التي كان اسمها (مارية) فصــار (مـــريـــم).

يضـاف إليهن عـائـلات أخـوال ذلك الأميـر – وهـم نصارى وفدوا عليه لتهنئته بتقلد الامارة، فأنزلهم بالعاصمة بمساكن عرف باب حومتها باسم (باب العلوج)، ولا يزال معروفا بذلك الى اليوم.

وفضلا عن تلك العوامل فان التونسيات تعلمن عن نساء مهاجري الأندلس : تدبير الشؤون المنزلية، وكيفية إعداد كثير من الأطعمة، وصُنع أصناف عديدة من الحلويات، ونقلن عنهن كثيرا من التقاليد والصناعات، وأساليب تربية الأبناء.

– وتمخص عما تقدم، وعن تعدد المعاهد التي بفضلها عمت المعرفة، وازدهرت الثقافة : الاهتمام بتعليم البنات تعليما منزليا وصناعيا. وبفضله انتشرت مدارس عرفت باسم (دار المعلمة) بالعاصمة وعدة مدن.

وكانت تقع بالمنازل حيث تقوم صاحباتها بدور معلمات، فتتولين في جملتهن : تلقين البنات اللائي ترددن عليها نصيبا من القرآن الكريم، والمبادي الدينية، – وتدريبهن على الشؤون المنزلية وعلى مختلف الصناعات – ومنها : الغزل، والتشبيك، والفصالة، والخياطة، والتطريز.

– وبفضل ما سبق تعداده، تطورت الحياة العائلية. ولابدع ، فعند المرأة التونسة المرونة والاستعداد للتطور ونشره ما ليس عند غيرها !

لكن ذلك لم يؤد بنساء العاصمة والمدن الى السفور. إذ كنّ يلازمن الديار ، ولا يبارحنها الا بحجاب، وصحبة

محرم، وغير متبرجات. أما نساء البادية فكن يخرجن سـافـــرات.

ويضاف الى ذلك التطور: الباع المديد الذي اكتسبته المرأة في ميدان الأدب. ومن دلائله: أن أحد رجالات ذلك العهد ـ وهو الرحالة (التيجاني) ـ أثبت في رحلته قوله: « إن لأهل تونس في الأدب باعا مديدا، فلم يكن منهم من لا يقول الشعر حتى النساء والصبيان ».

وأنتج جميع ذلك: ظهور بعض النساء، اقترنت حياتهن بجلائل الأعمال، فكن أفذاذا، وعظمت شهرتهن لقلة عـددهـن ـ ومن بينهـن:

1) خديجة المعافري ـ وتعرف باسم خدوج الرصفية، نسبة الى مكان قرب المهدية يعرف اليوم ب(الشابة).

وقد اشتهرت بأدبها وفصاحتها، ورقة شعرها، وبترسلها المماثل لترسل حذاق المترسليـن.

ومن نوادر شعرها: ما جادت به قريحتها إثر تكدير صفو حب ربط بينها، وبين شاب شاعر ظريف يدعى « أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله »، بعد أن اتضح أمرها، وذاع خبره، واشتدت الغيرة بوليها ـ أخيها الأكبر ـ متأثرا بأقوال بعض الوشاة، فلم يقبل لأبي مروان طلبه يد « خديجة » وأبعده.

ومنه هذه الابيات :

فرقوا بيننا فلما اجتمعنا
مزقونا بالزور والبهتان
ما ارى فعلهم بنا اليوم الا
مثل فعل الشيطان بالانسان
لهف نفسى عليك بل لهف نفسى
منك ان بنت يا « ابا مروان »

ومنه هذه الأبيات – وقد ضمنتها رسالة بعثت بها الى « وليها » تستنزل بها العطف منه :

أأخى الكبير وسيدى ورئيسى
ما بال حظى منك حظ بخيس ؟
ابغى رضاك بطاعة مقرونة
عندى بطاعة ربى القدوس
يا سيدى ما هكذا حكم النهى
حق الرئيس الرفق بالمرؤوس
واذا رضيت لى الهوان رضيته
ورايت ثوب الذل خير لبوس

2) السيدة المنوبية – عائشة بنت عمران بن الحاج سليمان. ولدت حوالي سنة 589 هـ.=1193م. بقرية « منوبة » من أحواز العاصمة، بالناحية الغربية.

نشأت هنالك، وحفظت القرآن الكريم. ثم التحقت بالعاصمة حيث أخذت تشتغل بخدمة الصوف وغزله، وتنفق ما تتحصل عليه من ذلك في معاشها وفي التصدق.

واتصلت بالشيخ « أبي الحسن الشاذلي » وتلقت عنه (الطريقة الشاذلية). واشتهرت بالعبادة والصلاح والزهد والخيريـة والحنان.

وتوفيت سنة 665 هـ. = 1266 م.، ودفنت بجبل الزهور، بالحي المعروف الان باسمها حيث توجد زاويتها – وذلك في مدة الأمير الحفصي الثاني «محمد المستنصر بـالله ».

وروي أنها ختمت في حياتها « القرآن الكريم » 1520 مـرة، وأن آخر ما سمع منها عند احتضارها قوله تعـالـى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ».

3) زينب التجانية – بنت أبي اسحاق إبراهيـم.

يرتبط نسبها بالرحالة « التيجاني » الذي أسلفنا القول عنه، وعن رحلته، وعن والده. وهي من أديبات العهد الحفصي. واشتهرت بنبوغها في القريض البديع. واتخذ شعرها دليلا على معرفتها بقواعده، وعلى تمكنها من الادب تمكنـا صحيحا، وعلى أنها ذات خيـال واسـع.

ومنه قولها ملغزة فيه اسم حبيبها « تديـم » :

يقولون لـي هذا حبيبـك مـا اسمـه ؟
فما استطعت افشاء وما استطعت اكتم
فقلـت اسمـه ميـم وحـرف مقـدم
فهذا اسم من اهوى – فديتكم – افهموا

ومنـــه قولها من قصيد في وصف شعر :

اذا اسدلـت منــه عليهـا ذوابـــة
كغصـن اراك عانقتـــه اراقـــــم

اذا نزعت عنه الملابس اسحـــــم
اثبـت طويـل فهـو يستـر جسمهـا

كأن الصباح ارتاح مـن خـوف طـالب
بثـأر فالـوى بالدجـى يتكتـــــم



جانب من زاوية الشيخ احمد بن عروس بتونس

الفصـــل ـ 10 ـ

البريد والصحة والأمن

ـ لـم تتحسـن حالـة البـريد عـن ذي قبـل، بل بقي شأنه ضعيفا وأمره مضطربا. واقتصر الأمراء على توجيه بريدهم بواسطة السعاة المشاة ـ أي أعوان البريد الرسمي ـ وهم رجال خفاف تعودوا الجري والصبر. يمتطون خيولا ممرنة عند الاستعجال، ويحملون البريد في حقائب أو أكياس من جلد لتسليمه الى المرسل إليه.

وبجانب ذلك يوجد البريد الحر، الذي يتولى أمره أصحاب قوافل التجارة، ويحمل الرسائل الخصوصية والمتاع، والاموال وغيـــرهـــا (1).

ـ وفي ميدان الصحة، كانت توجد عدة مرستانات ـ أي مستشفيات : بالعاصمة، وبالمدن الكبرى ـ كالقيروان، وسوســة، وصفاقس ـ وذلك منذ عهد الدولة الأغلبيـة.

1) تونس عبر التاريخ ـ ص . 220 ـ .

ومن المحتمل، أن مرستان سوسة كان يحتل المحل الذي لا يزال معروفا بهذا الاسم في حي « بين الفهاوي ». وبصرف النظر عن المحل، فان مرستان سوسة قد أعدّ لمعالجة عدوم المرضى في العهد الحفصي، حسبما جاء بصفحة 50 من كتاب ورقات – 1 – .

أما مرستان العاصمة، فالظاهر أنه اندثر – بدليل أن المؤرخين يعتبرون المرستان الذي شيد بها في هذا العهد أول مستشفى. (1).

وكان عدد الأطباء كبيرا. وقد تخرجوا من المدرسة الصقلية والمدرسة الأندلسية. وكان لهم أمين لدى البلاط كثيرا ما استدعي من طرف ملوك فرنسا ليعالج مرضاهم – (تونس عبر التاريخ – ص. 205).

– أما الأمن، فكان يسهر على نظامه مأمور. وكانت مهامه بالعاصمة منوطة بعهدة مشائخ الأرباض، ليقوموا على خفارة المدينة ليلا بعد أن تغلق أبوابها، تعاونهم جماعات من السكان تتناوب العمل فيما بينهـا.

وكان أمره خارج العاصمة منوطا بعهدة الولاة والعمال

1) شيده الامير أبو فارس عبد العزيز – ص . 122 تاريخ ابن ابى الضياف – ج . – 1 – .

الذين يعتمدون على مشائخ البلدان ورؤساء القبائل. أما سواحل البلاد، فلها حراس يبلغ عددهم عشرة آلاف.

وكان للأسواق أينما وجدت - أي بالعاصمة أو خارجها، حراس يتولون غلق أبوابها، ويسهرون على البضاعة الموجودة بها.

ومن دلائل انتشار الأمن بالبلاد ما حوته تعليمات كتابية، مؤرخة في سنة 850 هـ. = 1446 م.، أعطتها بلدية (فيورنزا الايطالية) الى مبعوث أرسلته الى الأمير التاسع عشر (أبي عمرو وعثمان) ليتوسل اليه كي يرجع اليها أسيرين وقع القبض عليهما عندما شاركا في غارة من غارات القراصنة. (1)

وجاء في تلك التعليمات ما يلي : « ...... واذكر لحضرة الملك، بأن (فيورنزة) تعلم - منذ عهد بعيد عن طريق تجارها - إنصافه، وحلمه الواسع، وأن المسافرين والتجار يلقون في بلاده من الأمن ما يجعل المسافر يعبُر المناطق البعيدة عن الحضارة والصحاري، دون أن يهدده أي خطر، ولو كان يحمل الذهب والحجارة الكريمة ».

---

1) عن ماس لا ترى - البحوث التربوية - الكراس - 1 - .

حسن يوسف المحرشي

الفصــل - 11 -

الحياة الاقتصادية

تشمل الحياة الاقتصادية ميادين الصناعـة، والفلاحــة - والتجــارة.

- ففي الميدان الأول انتشرت الصناعات بالعاصمــة وبمختلف المدن - ومنها : صناعة الصوف أي حياكته، وصبغه، وصنع اللفة، والبسط، والشواشي، وغيرها منه - وصناعة الجلد أي دبغه، ونقشه، وزخرفته، وصنع البلغة، والشبرلة، والسروج، منه - وصناعتا عصر الزيتون، وصنع الصابون - وصناعة الحلفاء أي ضفرها، وصنع الشوامــي والسلال وغيرها منها - وصناعة الخشب أي اللوح، ونقشه وصنع الاثاث وغيرها منه - وصناعة البناء، ونقش حجــر الكذّال، وما الى ذلك، - وصناعات العطورات، والشمع والزجاج، والفخار، والحديد، والغرابيل، وصياغة الذهب والفضة - وصناعة الجليز التي تقدمت باحداث تزويقات فيه، وبصنع نوع بارز الزخرف - وصناعة الثياب الرفيعة التي اشتهرت بها مدينة ســوســة.

ونتيجة للاهتمام بشأنها جادت المصنوعات ودقت، وراجت، بالرغم عن طابعها التقليدي – إذ هي في معظمها يدوية ومعتمدة على منتوجات البلاد الطبيعية.

وقد أحدثت لها الأسواق – ومنها بالعاصمة : سوق الحدادين، وسوق صانعي السلال، بالاضافة الى الاسواق الأخرى التي لا تزال موجودة ومحتفظة بأسمائها الى الان – ومنها : أسواق الشاشية، واللفة، والدباغين، والبلغجية، والغرابلية، والسراجين، والنحاس. –

– وفي ميدان الفلاحة، عني الأمراء بانشاء البساتين اليانعة حول قصورهم الأنيقة التي سبق الكلام عنها. وأحدث السكان الأجنة الجميلة بمنتزهاتهم، حول العاصمة. وأقبل سكان الأرياف على الفلاحة، وعنوا بأمرها، فارتقت وتقدمت، على الرغم من حوادث الشغب، ومن تعدد الثورات. ومن ذلك : غراسة الزياتين، وزراعة الحبوب، وتربية المواشي – أي الابل والغنم والبقر، واستثمار النحل لانتاج العسل والشمع، وتربية الدواجن بأنواعها. وازدهر الصيد البحري حيث استثمر بصفة منظمة بالتعاون مع شركات أجنبية – ومن ذلك صيد التن، واستغلال المرجان والاسفنج.

– أما التجارة فقد اشتد اهتمام الأمراء بشأنها، وبذلوا مجهودات لترقيتها. إذ عملوا على ترويج منتوجات البلاد

في الداخل بتنظيم أسواق خاصة للحيوانات — منها بالعاصمة : رحبة الغنم، وبطحاء الخيل — وباحداث أسواق بتونس : للزيت، وللخضر، وللحبوب. وللنحاس — وبتشييد أسواق حول جامع الزيتونة — ومنها : سوق الشماعين، وسوق القماش، وسوق العطارين الذي بلغ عدد دكاكينه السبعمائة. وكانت الأسواق التجارية بالبلاد نوعين : يومية وأسبوعية.

وبالاضافة الى ذلك. نظم الأمراء التجارة الخارجية : في البر بواسطة القوافل — وفي البحر، بواسطة الأسطول التجاري الذي جددوه. وعقدوا المعاهدات التجارية مع دول كثيرة. وكان يسبق عقدها تفاوض لا يبعد كثيرا عن المفاوضات التي تجري في عهدنا الحاضر بهذا الشأن.

وبفضل تلك المعاهدات، التي كانت بعض الدول المتعاقدة تتمتع بمقتضاها بمعاملات خاصة، أخذت التجارة بأسباب الرقي، وأصبح اتصال تونس بأروبا مستمرا. وتوطدت العلاقات التجارية بالخصوص مع : فرنسا — والأندلس — وصقلية — وجنوة — والبندقية. وكان التجار الأجانب يأتون للمعاملات التجارية، فيجدون من تجار تونس عونا على صفقاتهم الرابحة.

ونتيجة لما تقدم. وبفضل موقع البلاد الجغرافي الذي جعلها ملتقى للقوافل البحرية، وجلب الى موانيها كثيرا من القراصنة انتشر بسببهم فداء الأسرى وبيع العلوج بالعاصمة في

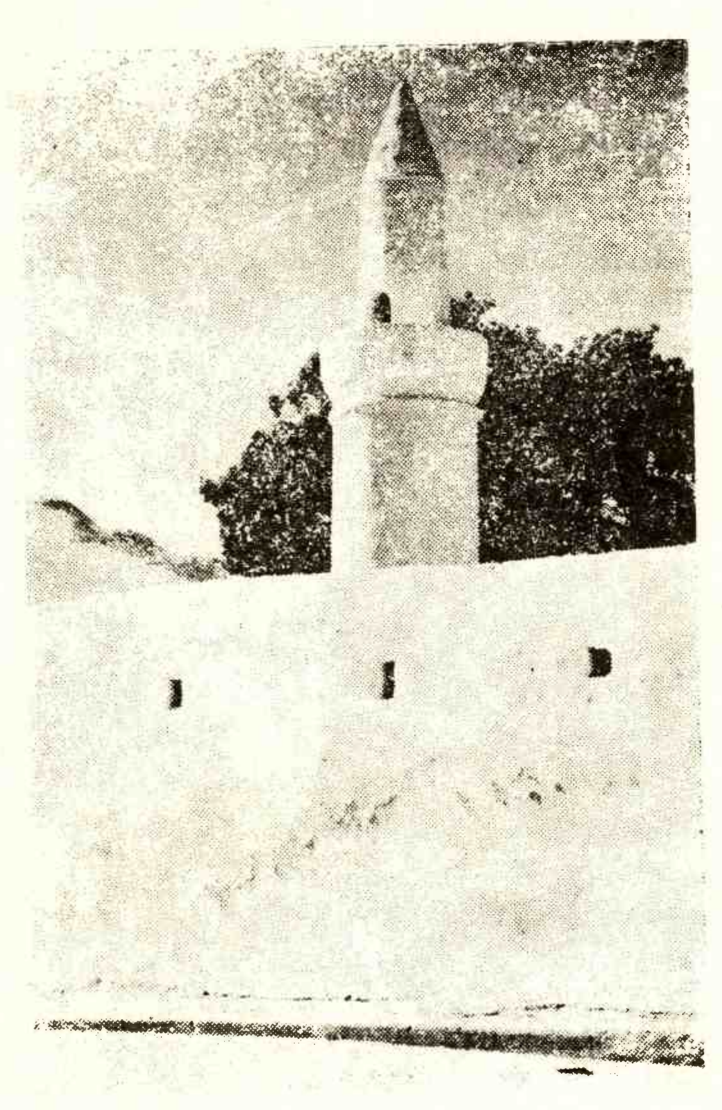
سوق البركة المعد اليوم للصياغة، ازدهرت التجارة، وعادت المعاليم المستخلصة من طرف مراكز الجمرك على الصادرات والواردات بالخير العميم على خزينة الدولة، فضلا عن الغنائم والسبايا التي تنجر للأمراء من القرصنة مقابل رعايتهم للقراصنـــة:

والملاحظ، أن القوافل التجارية البحرية أصبحت وسيلة لتعريف القارة الأروبية بالحضارة الشرقية، فضلا عـــن قيامها بنقل البضائع. وأن المعاليم المشار اليها كانت تبلغ العشر من ثمن البضائع، إلا أن بعض الدول كـــانـــت تعامل معاملة خاصة بمقتضى المعاهدات المعقودة معهـــا. يضاف الى ذلك أن جالياتها بتونس كان لها نواب في مراكز الجمرك يعرفون بالشهود أو بالمحاسبين.

ومن صادرات البلاد : الجلود، والصوف، وبعـــض المنسوجات، والحبوب، والزيت، والتمر، والعسل، والشمع، والتن، والاسفنج، والمرجان، والملح، ومعدن الرصاص، والبوطاس، وبعض الأسلحة. ومن وارداتهـا : الذهب، والفضة، والأسلحة، والخشب، والورق، وأنواع من الأقمشة، والحجارة الكريمـــة.

وقد ساعد على رقي التجارة وبلوغها الى تلك الدرجة، بالاضافة الى العوامل التي سبق تعدادها : الاتصال المباشر،

المنجر عن اقامة التجار الأجانب بالعاصمة حيث تمكنوا من تنظيم شؤونهم التجارية، وتعلموا طرق المعاملات؛ في جو من الثقة المتبادلة كان يسود علائقهم بالتجار التونسيين، زيادة عن وجود شركات منظمة لتبديل العملة وتسعيرها، ومؤسسات للقروض وتوزيع الأرباح وضمان البضائع.



جامع الاتراك بجزيرة جربة

الفصـــل ـ 12 ـ

الحياة الدينية

الدوله الحفصية هي دوله تفرعت عن الدولة الموحدية، المنبثقة عن حركة دينية، بنيت على تعاليم إصلاحية استمسك بها الأمراء الحفصيـون.

وقد أخذت تلك التعاليم من تعاليم حجة الاسلام الامام الغزالي السنية الاصلاحية، التي تعتمد على القواعد الدينية السلفية المحافظة ــ ومنها : التشدد في الدين، وفي العقاب على البذاءة ــ ومقاومة البدع.

ولم ينفر السكان تلك التعاليم، لأنها لا تتنافى مع المذهب المالكي الذي يعتنقونه. وبذلك استطاع الأمراء الحفصيون أن يقروا هذا المذهب إقرارا نهائيا في البلاد. واستطاع رجال الدين أن يوفقوا بين العلم والعمل، وأن يجعلوا الـدين الاسلامي متماشيا مع ظروف الحياة المتطورة، وفي خدمة رفاهية الفرد والمجموعة البشرية التي تعتنقـه.

أما المذهب الحنفي، فكان يعتنقه حنفي وحيد بالبلاد — وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عثمان الزناتي — حسبما أثبته «أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني» في «رحلتـه».

هذا ويضاف الى استمساك الأمراء الحفصيين بتلك التعاليم : احتفاظهم باجلال الامام المهدي « ابن تومرت » الذي كان دعا اليها، واتخذها شعارا للدولة الموحدية التي أعلن تأسيسها، وباحترام خلفائـه.

من ذلك، أن أيمة المساجد في عهدهم حافظوا فـي الخطب الجمعية على الترضية عليه، والثناء على دعوته — وأن الأمراء حافظوا على نقش اسمه، مع أسماء الخلفاء الموحدين الذين تداولوا على الحكم بعده، في سكتهم.

وتبعا لذلك، اهتم السكان — بتشجيع من الأمراء — بالاعياد والمواسم الدينية التي سبق تعدادها، وبشهر رمضان المعظم، وبالمولد النبوي الشريف، وأصبحوا يحتفون بها، ويحيون ذكراها، ويقيمون الاحتفلات الشيقة بمناسباتها. واشتد الاقبال على تعلم الفقه وما إليه من علوم الدين، وعلى تأسيس الكتاتيب والمدارس. وعظمت العناية بتشييد الجوامع والمساجد بدافع ديني — ومن ذلك :

1) جامع القصبة بتونس — ويمتاز بالمقربص الجبسي الموجود

تحت قبة محرابه، وبزخرفة صومعته من الخارج زخرفة تسطيرية – أي ذات تساطير ناتئة – فضلا عن كونها أجمل وأفخم وأبهى صوامع العاصمة، وعن كونها مربعة الشكل وتناطح الأفلاك بارتفاعها.

وقد ابتناه الأمير « أبو زكرياء يحي » قبل تأسيسه للدولة الحفصية – أي عندما كان واليا، ونقش اسمه على صومعته. ودشنها بنفسه إثر تمامها، إذ أذن فيها لصلاة صبح سابع رمضان سنة 633 هـ. = جوان سنة 1235.

ونظرا لارتفاع موقع هذا الجامع الذي هو أعلى بقعة بالعاصمة، وارتفاع صومعته، اختير فيما بعد لنشر علم أبيض فوق صومعته ينبه بقية جوامع العاصمة ومساجدها بدخول وقت الصلاة. ولا يزال هذا الجامع قائم الذات بصومعته، وأصبح تحفة رائعة بفضل الاصلاحات الجوهرية التي أجريت عليه في السنوات الأخيرة.

2) جامع التوفيق أو جامع الهواء بتونس – وهو لا يزال موجودا في ساحة معقل الزعيم. وقد قلد على جامع الزيتونة في الجملة والتفصيل، الا أن قبته جاءت مشوهة. وهو من مآثر الأميرة (عصف) زوجة الأمير « أبي زكرياء يحي ». أسسته في مدة إمارة ابنها الأمير الثاني « محمد المستنصر بالله » سنة 650 هـ. = 1252 م. – .

3) جامع الحلق بتونس — وهو موجود حاليا في حي باب الجديد، ومن مآثر أمة زنجية شيدته بثمن بيع أسورة ذهبية — وذلك في مدة الأمير الثاني « محمد المستنصر بالله ».

4) جامع الزيتونة البراني أو جامع الزرارعية بتونس — وهو موجود حاليا خارج باب البحر بشارع المنجي سليم. وقع تشييده — مكان فندق كانت تباع الخمر فيه — في مدة الأمير الرابع « أبي اسحاق إبراهيم الأول » سنة 681 هـ. = 1282 م. — وقد اغتصبه الاسبان عند احتلالهم للعاصمة. وجعلوه مستودعا لذخيرتهم.

5) جامع التبانين أو جامع النمافتة بتونس — وهو لا يزال قائم الذات بالتبانين من ربض باب السويقة، ومن مآثر الأمير التاسع عشر « أبي عمرو عثمان ».

6) مسجد الأخوات بسوسة — ويقع بجانب القصبة. ويمتاز بكون واجهته الداخلية محلاة بجهاز زخرفي منقوش على الحجـــارة.

وبدافع الدين أيضا، عني الأمراء بتحسين أو ترميم ما كان موجودا من الجوامع والمساجد التي يبلغ عددها بالعاصمة قرابة المائتين — من ذلك :

— تجديد أبواب جامع الزيتونة بأبواب من عود الساج.

— إجراء تحسينات كبيرة في جامع عقبة بمدينة القيروان،

وتشييد مدخله الشرفي الضخم المعروف باسم « باب ريحانة »
– زيادة مجنبات في الناحية الجوفية بالجامع الكبير بالمنستير.

وبنفس الدافع أيضا، اهتم الأمراء بما يتصل بالماء. فأحدثوا بالعاصمة صهريجا كبيرا في الدملى خارج باب المنارة، وميضاة وسقايات ومصاصة « وهي سبيل يمص فيها الانسان الماء من صنبور » في سوق العطارين، وسقاية شرقي جامع الزيتونة وسبالة بأسفله. وأنشأوا عدة مصانع للماء في الطرق الموصلة للعاصمة.

– وفي المدة الأخيرة من هذا العهد ، ضعف نشاط النهضة الثقافية نتيجة لما تخللها من ثورات، وتناحر وحوادث واضطرابات، بالرغم من حزم بعض العلماء وعملهم الايجابي وتجديدهم. فأخذ المرابطون وأصحاب الطرق الصوفية يسيطرون على الدين يوما بعد يوم، فسجلت لهم كثير من المزايا الأخلاقية، بالرغم عن انتشار الاعتقادات المشطة أحيانا في بركة بعضهم. ومن أبرزهم :

1) الشيخ نور الدين أبو الحسن الشاذلي – وأصله من بلاد الريف بالمغرب الأقصى حيث ولد ببلدة (غمارة) سنة 593 هـ. = 1196 م. – .

قام بفريضة الحج، ثم التحق بمدينة (بغداد)، وتلقى العلم عن شيوخها، والتصوف عن الشيخ (جنيد)، وبذلك

صار عالما بفنون اللغة والدين، وعارفا بعلم التصوف، وقويّ الإيمان، وفصيح اللسان، وحسن البيان.

ومن هنالك رجع الى بلاده، والتحق بشيخ صوفي — هو محمد عبد السلام بن مشيش، ولازمه مدة، وأخذ عنه. ثم التحق بالبلاد التونسية، وأقام قرب العاصمة، بقرية (شاذلة) التي نسب اليها وصار يعرف بـ(الشاذلي). ثم انتقل الى مدينة تونس، حيث تعرف بالشيخ الصوفي أبي سعيد الباجي، ولازمه، وانتفع به كثيرا. ثم ذهب الى مدينة زغوان ورابط بها، ورجع منها الى العاصمة حيث رابط بالمغارة القائمة بجبل الزلاج.

وأثناء مرابطته، تفرغ لتربية المريدين، فشاع أمره، وكون ممن التف حوله أتباعا ومريدين كثيرين، وظهرت كراماته.

ثم التحق بمصر، وبقي على اتصال بمدينة تونس، ثم رجع اليها وقضى مدة بها. ثم سافر الى مصر حيث استقر الى أن توفي ودفن بها سنة 656 هـ. = 1258 م. —.

وقد عُرفت طريقته في التصوف بـ(الطريقة الشاذلية) — ومن أصولها : خوف الله، والتمسك بالسنة، والتسليم لارادة الله، واحتقار العالم.

وبالغ في الدرس حتى فقد بصره بالمطالعة. وهو الذي جلب الى البلاد التونسية (القهوة) من اليمن، ليتناولها

مريدوه، فتمنع عنهم النوم. ويتمكنون من قضاء السهرات في العبادة والذكر. ولذلك عرفت القهوة لعهد غير بعيد بـ(الشاذلية) وكان العامة يقسمون بها.

وشيخه ببغداد (جنيد) – أبو القاسم الحزاز أو الزجاج – هو زاهد بغدادي، حج الى مكة ثلاثين مرة على الأقدام، وعرف بسيد الطائفة الجنيدية وطاوس العلماء. ومن أقواله: « التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله الصرف عن الدنيا » و « الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار ».

أما المقام الشاذلي الموجود حاليا على قمة جبل الزلاج بتونس، والمجاور للمغارة التي كان رابط بها الشيخ أبو الحسن الشاذلي، فقد شيده في عهد ما قبل الحماية الحسيني، الوزير (مصطفى خزندار) ترضية منه للرأي العام الذي كان إذذاك قوي الاعتقاد في الطريقة الشاذلية.

2) الشيخ أبو سعيد الباجي – ولد سنة 551 هـ. = 1156 م.، قرب منوبة من أحواز مدينة تونس، بقرية (باجة القديمة) التي ينتسب إليها.

التحق بمكة المكرمة حيث مكث ثلاث سنين تتلمذ أثناءها لعلمائها وقام بفريضة الحج. وانتقل في نهايتها الى بلاد الشام ورجع الى مدينة تونس.

وقد اشتهر بين الناس بالتصوف، وعرف بالصلاح والتقوى

والتفرغ للعبادة بصورة متواصلة. والتف حوله مريدون كثيرون وأتباع عديدون كان جميعهم يترددون معه على منارة قرطاجنة، ويعتكفون فيها. وتوفي سنة 628 هـ. = 1230م.. ودفن بجبل المنار، من الضواحي الشمالية للعاصمة، وشيد حول قبره مقامه الجميل الذي لا يزال قائم الذات.

3) الشيخ أحمد بن عروس الهواري – ولد حوالي سنة 778 هـ. = 1376 م. بقرية المزاتين – بوادي الرمل من الوطن القبلي التونسي.

ارتحل صغيرا الى مدينة تونس، وأقام بها مدة كان يتردد أثناءها على مقام الشيخ (محرز بن خلف). ثم انتقل الى مدينة باجة، ومنها الى (ميلة) حيث تصدى لتعليم الصبيان.

ثم سافر الى المغرب الأقصى حيث أقام وتجول مدة رجع في نهايتها الى مدينة تونس حيث لازم الصلاة بجامع الزيتونة، وشاع خبره، واشتهر بالتصوف. واعتبر من الصالحين الأخيار معتقدا ومهابا، وسمي سلطان المدينة، وكون أتباعا كثيرين. وطريقته متفرعة عن (الشاذلية)، وتعرف، باسم (العروسية). وتوفي سنة 868 هـ. = 1463 م. —.

أما زاويته المدفون بها، والتي لا تزال قائمة الذات بالقرب من سوق العطارين، فقد شيدها له في حياته، وقبل ثلاثين سنة من وفاته، الأمير الحفصي الثامن عشر (محمد المنتصر).

وكان الناس يلتجئون اليها. وكان لها ولصاحبها مكانة عند الأمراء الحفصيين. ولازمها مدة أحدهم. وكانت الى حد غير بعيد من المقامات التي يتبرك ملوك تونس بزيارتها : ليلة السابع والعشرين من رمضان، وليلة المولد النبوي الشريف. وهي حاليا مقر لجمعية المحافظة على القرآن الكريم.

4) الشيخ قاسم الجليزي — وهو من مهاجري الأندلس. وكان يتعاطى صناعة الزليج البارز الزخرف. واشتهر بالصلاح. وتوفي سنة 902 هـ. = 1496 م.، ودفن بزاويته التي ابتناها لنفسه بتونس. ولا تزال قائمة الذات، داخل باب سيدي قاسم، بساحة معقل الزعيم. ووصفت بأنها روضة من رياض الجنة، ثم خربت وتهدمت وضاعت. ثم جددت.

وهي تشتمل على قاعة مسقوفة بقبة عظيمة هرمية الشكل. من قرمد الفخار الأخضر. وتنتح على بناء تحيط به أروقة أربعة وراءها غرف — وعلى مسجد متألف من ثلاث بلاطات عمقا، وثلاث مساكب عرضا، وبه محراب مؤلف من لوحات رخامية متوجة بأقواس مشرفة عليها نقوش وكتابات.

أما جدران الزاوية. فهي مكسوة بقطع الزليج الملون المزخرف بالتساطير البارزة. وفي هذه الزاوية يوجد قبر الأمير الثالث والعشرين « أبي العباس احمد الثاني ».

5) الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمران، الشهير باسم « بوراوي الفحل » - أصله من بلدة القلعة الصغرى. تلقى التصوف عن والده الذي كان ممن أخذوا عن الشيخ احمد بن عروس الهواري. كان تقيا، عابدا، يلازم الخلوة والتهجد، واشتهر بالصلاح.

وقد قضى حياته بمدينة سوسة حيث توفي سنة 931 هـ. = 1524 م.، وشيدت حول قبره زاوية ضخمة بقلب المدينة لا تزال موجودة.

6) الشيخ احمد بن مخلوف الشابي - نسبة لقرية (الشابة) المجاورة لمدينة المهدية، والتي ولد بها سنة 803 هـ. = 1400 م.

ارتحل الى العاصمة ، وقضى بها أعواما تلقى أثناءها دراسة متينة أصبح بفضلها مثقفا، وأخذ عن شيوخ التصوف ومن بينهم الشيخ احمد بن عروس الهواري.

ثم رجع الى جهة المهدية، والتحق بالشيخ الصوفي « علي المحجوب » ، وأخذ عنه. ولازمه الى أن ظهرت له كرامات وتم لـه الفتـح.

فالتحق بمدينة القيروان حيث اشتهر خبره، وكثر أتباعه، وتكونت منهم حوله (فرقة الشابية). وانتخب إماما، ومؤدبا، ؛

وتزوج فأنجب أولادا كثيرين – أشهرهم : الشيخ محمد الأكبر – والشيخ عرفة – والشيخ أبو الطيب.

ولما شاع أمر طريقته الصوفية التي كان يبثها واشتهرت ب(الطريقة الشابية)، لقي معارضة من طرف حاسديه. فانتصر عليهم أدبيا بفتوى استصدرها من قاضي القضاة الشيخ محمد الرصاع، إذ كانت محبذة لعقيدة طريقته – وتوفي سنة 887 هـ. = 1482م.

فخلفه على رأس (الفرقة الشابية) ابنه الشيخ محمد الأكبر، وتوفي بعد ثلاثة أعوام – أي سنة 890 هـ. = 1485م.

فتولى أمرها (الشيخ عرفة) وسجل لها ازدهارا لم تعرفه من قبل. إذ جعل من مدينة القيروان مركزا دينيا وسياسيا نشيطا، ومدينة منشقة. وتمكن على رأس أتباعه من الانتصار على قوات الأمير الحفصي الثاني والعشرين (الحسن بن محمد). فشجعه ذلك على البقاء على انشقاقه، وحاول أن يؤسس إمارة، إلا أن الظروف كانت شديدة. إذ تزايد عدد المعارضين – وأغلبهم من البدو – ونفروه، وتوفي سنة 949هـ. = 1542م.

فخلفه الشيخ (أبو الطيب) ، وكانت البلاد يومئذ (محمية إسبانية)، وفي حالة فوضى وهيجان، وكان الأتراك الذين احتلوا الجزائر ينافسون الاسبان.

في ذلك الجو الرهيب، أخذت الدعاية والمعارضة تتزايد ضد الطريقة الشابية . وبذلك سقط شيخها في نظر أهل القيروان، وفقد لديهم احترامه وهيبته واعتباره، وما له من حق الولاء والطاعة . وأدى ذلك بهم الى الاستنجاد بالقائد التركي (درغوث باشا) الذي كان واليا بطرابلس، بعد أن انتزعها من الاسبان. فاستجاب لذلك، وقدم الى الى القيروان على رأس قوة عسكرية، وقتل الشيخ أبا الطيب، وفر الشابيون. فوقعت مطاردتهم، وتشتت شملهم (1). وبعد أمد بعيد، تمكن بعضهم من الاقامة بمدينة قفصة حيث عرفوا بالاجرين، وتمكن الاخرون من الاقامة بالقرب من مدينة توزر حيث تكونت منهم قرية (الشابية).

7) الشيخ عامر بن الحاج سالم الدزوغي – ولد حوالي سنة 920 هـ. = 1514 م. – . بقرية الساحلين الكائنة جنوبي مدينة سوسة على بعد عشرة أميال – وذلك في مدة الأمير الحفصي الحادي والعشرين « أبي عبد الله محمد ».

يرتفع نسبه الى جدي الاشراف : الامام علي بن أبي طالب، والسيدة فاطمة الزهراء – رضي الله عنهما.

ارتحل أحد أجداده الأولين من مكة المكرمة الى المغرب الأقصى، وتزوج هنالك، وكان من نسله ولد يدعى« إبراهيم ».

---

1) سنة 966 هـ . = 1558 م .

وقد ولد ببلدة « مزوغة » فنسب اليها، وأصبح لفظ (المزوغي) لقبا له ولمن تناسلوا منه — ومن بينهم « سالم » والد مترجمنا الذي أدى — صحبة والديه — فريضة الحج وسنتي العمرة والزيارة، وبعد أن أقام مدة بأحدى ضواحي المدينة المنورة حيث توفيت والدته، ثم بالبلاد المصرية حيث توفي والده، رجع الى المغرب الاقصى حيث استقر بمدينة فاس مدة ارتحل في نهايتها الى البلاد التونسية. فأقام مدة بالعاصمة، ثم التحق بمدينة القيروان، ومنها سافر الى قرية الساحليـــن.

وهنالك نزل عند الوالي الصالح الشيخ (نصر الشارف) ولم يلبث أن تزوج من ابنته « ريانة »، ثم توفي هنالك وهي حامل، فولدت بعد وفاته ولدا سمي « عـامر ».

فنشأ هذا الولد يتيما في كفالة خاله ، وحفظ بزاوية جده القرآن الكريم. ثم انتقل الى مدينة سوسة، واتصل بالعالم والمفتي الشيخ (محمد الريغي)، ولازمه طيلة ثلاثة أعوام تلقى أثناءها عنه ما أصبح بفضله مثقفا وفقيها.

ثم ارتحل الى العاصمة ، وقصد أحد شيوخ التصوف الولي الصالح الشيخ (أبا الغيث القشاش التونسي)، وتتلمذ عليه مدة عشر سنين شهد له في نهايتها بالفتح، وأجاز له بث « الطريقة الشاذلية ».

وإثر ذلك، استقل بالسكنى بمحل خاص. وأخذ يبث تلك الطريقة. فالتف حوله أتباع كثيرون. ومريدون عديدون. واشتهر بالزهد والتقوى والصلاح. وظهـرت على يديه عـــدة كرامـــات.

ثم فارق مدينة تونس، وتجول في معظم أنحاء البلاد ـ وهو يبث تلك الطريقة، الى أن استقر بـه المطاف بمكان قرب مسقط رأسه. يعرف باسم « هنشير الوحيشي ».

وهنالك ابتنى خلوة بمساعدة بعض الأتباع والمريدين، واتخذها مقرا له. فشاع خبره، وأصبح الناس من مختلف الجهات يزورونه ويتبركون به. ويأخذون عنه ما عرف بـ(الطريقة العامرية). وباعانتهم شيد حوشا وبيتا ومجسدا. وتزوج بالانسة « أم دلال » كريمة المرابط الشيخ أحمد بن محمد الرحاي ـ شهر بوزعيبة. ثم تعددت كراماته، وازدادت شهرته، وصارت زيارات مريديه، من صفاقس والقيروان وجهة تالة، سنوية، وزيارات غيرهم أسبوعية ـ كل يوم خميـــــس.

وتلقى عنه طريقته بعض المسؤولين في الدولة الحفصية، وتولى أحدهم تشييد زاوية له ـ وذلك سنة 970 هـ. = 1562م. وكانت البلاد إذذاك (محمية إسبانية)، ومدينتا سوسة والمنستير محتلتين من طرف الاسبان الذين لقي السكان منهم جورا وظلما وقهرا لا يوصف، حسبما سبق إثباته.

وقياما برد الفعل ضد الاسبان، كان الشيخ « عامر المزوغي » يبث روح المقاومة الوطنية، وتمكن من قتل تسعة من الاسبان، وكون أفواجا من المقاومين. ولم يمض وقت طويل حتى أُطرد الاسبان، وسقطت الدولة الحفصيـــة.

وفي العهد العثماني، شاع خبر نشاط الشيخ في ميدان المقاومة ضد الاسبان، وما بذله من المجهودات، وبلغ صداه مسامع حكام البلاد الجدد من الأتراك، فلقي حظوة ممتازة لـديهم، وجددوا له زاويته فصارت تحفة رائعة.

وكان ذلك مجلبة للكثير من المتبركين بالشيـخ ومحبيه، ومريديه، فاستقروا حول الزاوية، ومنهم، ومن أبنائهم. ونسلهم ومن ولده « نصر » وأبنائه، وأحفاده، ونسلهم، تكونت بلدة (سيدي عامر)حيث توفي الشيخ ودفن بزاويته ـــ خلال سنة 1040 هـ. = 1630 م.

وقد ضمن « الشيخ مخلوف » كتابه « شجرة النور الزكية » ترجمة للشيخ جاء فيها : أن الشيخ الصالح الشهير الذكر، وصاحب الكرامات (عـامر المزوغي) ممن أخذوا عن الشيخ « أبي الغيث القشاش »، وأن له زاوية كبرى بالقرب من قرية الساحلين بالبلدة المعروفة باسم « سيـدي عـــامـــر »



أثر حصن اسباني بقليبية

الفصــل - 13 -

سياسة الحفصيين

حظيت الدولة الحفصية بعز وسلطان ونفوذ لم يتسن لكثير من الدول، إلا أن الغالب عليها سوء الادارة، لبعد عهدها عن الصبغة العربية والحضارة الشرقية، ولتغلب الفكر البربري على رجالها ومدنيتها - علما وأنها الدولة البربرية الثانية، باعتبار « الدولة الصنهاجية » هي الاولى.

لذلك كان دورها تقليديا بعيدا عن الابتكار، وكانت سياستها العامة ضعيفة في مجموعها.

غير أن عصر أمرائها الأولين كان من عصور تونس الزاهرة. فقد عظم شأن دولتهم، وكانت البلاد في عهدهم أعظم وأخطر مملكة في العالم الاسلامي. إذ امتد أمرها، واتسع مجال ملكها، ومدت يد البيعة من المشرق والمغرب اليها.

ومرد ذلك الى أن أمراءها كانوا أقرب الى خلال الخير. إذ يتصرفون في حدود الدين، ويعتمدون على أحكام الكتاب والسنة، ويتباهون بالانحياز الى سيرة السلف الصالح، ويحضون

السكان على اتباعهم، والاقتداء بهم، والسير على منوالهم — سواء في التسلح بالايمان، والخوف من الله، أو في توطين النفس على الاحكام الشرعية والآداب الاسلامية، أو في القيام بفروض الدين وشعائره، والتخلق بأخلاقه، أو في التقشف في حياتهم، أو في حسن التصرف في أمورهم....

وبفضل تلك النفسية التي كانت تقود أولئك الأمراء، وقوة الوازع الديني الذي كان يسيطر عليهم، أنشأوا في العاصمة وغيرها المشاريع الجليلة والأبنية النافعة، التي سبق ذكر نتف منها، مما بقي أثره، ولم ينس خبره. ونفق في أيامهم سوق العلم، فبرز في ربوعه أعلام يفاخر بهم المغرب المشرق — حسبما تشهد بذلك مصنفاتهم.

وهكذا نهضت البلاد في جميع المجالات، وجلب مغنطيس الأمن والعدل الى الاقامة بها وفودا وجاليات اختلفت أجناسهم ونحلهم، فزادوا في عمرانها، وساهموا في نهضتها.

أما الأمراء الأخيرون، فقد انسلخ معظمهم عن تعاليم الدين، وأقبلوا على الدنيا بما فيها : إذ ارتكبوا المذمومات، وانتحلوا الرذائل، وسلكوا طرقها، وتجرأوا على القتل، وعلى أخذ الأموال بغير وجه شرعي أو سياسي، وأعطوا المثال السيء الى السكان بما أعلنوه على بعضهم من ثورات — تنازعا على السلطة — اضطروا بسببها : تارة الى التنازل على

الامارة، وتـارة الى الفرار، وتـارة الى التقاتـل وما اليـه من اتخاذ وسائل قمع ما أنزل الله بها من سلطـان.

ومن جراء ذلك، واجهتهم صعوبات كثيرة. أسفرت عن حدوث خلافات بين القبائل وانشقاق في بعض المدن، وأثارت كثيرا من الفتن والقلاقل التي تبعث في النفس خجلا، وسبق ذكر بعضها. وأنتجت ضعفا في نفوذهم. ووهنا في الروابط التي بينهم وبين السكان.

فاستضعفهم النصارى، ونالوا من هيبة الدولة ومـن خيرات البلاد ما نالوا — ومثلهم « أبو الحسن المريني » الـذي هاجم البلاد بجيشه، وقتل أميرها الثاني عشر « أبا حفص عمر الثاني » ، واحتل العاصمة — وإن بلغت مدته فيها ثلاثين شهرا ونصفا فقط، فانها كانت تدوم أكثر لو لا أن ثار عليه السكان وأجبروه على الهروب.

وكان على الأمراء الثلاثة الأخيرين — بالخصوص — أن يتعظوا بذلك، ويتداركوا الأمر، إلا أن تشبثهم بالسلطة دون اعتماد على الشعب كان المسيطر على نفوسهم، ووصل بالأمير « الحسن بن محمد » الى أن استجند بمالك إسبانيا. وبذل له ما أرضاه في العاجل والاجل، فسجل اسمه بمداد الخزي والعار واللعنة، وأصبحت البلاد « محمية إسبانية »، وهوجمت من طرف الكثيرين حسبما تقدم إيضاحـه.

فذاق الشعب من جراء ذلك لباس الجوع والخوف، إذ أصبحت كرامته مداسة، وأمواله منهوبة، ودوره مغصوبة، وكتبه ممزقة بسنابك الخيل، وجامعه الأعظم مربطا للدواب، الى غير ذلك مما يسوء ذكره، وقابله الشعب بردود فعل كبدت الاسبان الهزائم الشنيعة، والخسائر الفادحة.

وبذلك تفاقم الوضع، ولم يفد تسميل عيني الأمير « الحسن بن محمد » — ولا استنجاد الأمير « أبي العباس الثاني » بالاسبان من جديد ضد الأتراك — ولا ارتحاله عن البلاد — ولا تعاون أخيه الأمير « محمد الحسن» مع الاسبان — إذ أسفر تدخل الأتراك في النهاية عن اعتقال هذا الأمير، وتطهير البلاد من الاسبان.

وعلى تلك الصورة، انقرضت الدولة الحفصية، ونفد قضاء الله، ولا مرد لحكمه. إذ الملك لله يؤتيه من يشاء من عباده — والعاقبة للمتقين.

الفصـــل - 14 -

ملاحق

هي جملة نصوص مكملة لما اثبتناه، وموضحه لمـا أجملناه – وفحواها :

1) وصية مؤسس الدولة الحفصية «أبي زكرياء يحي» لولي عهده. ومصدرها : ج – 1 – من تاريخ ابن أبي الضياف – ص 157 وما يليها.

2) نصان لسائح مسيحي زار تونس سنة 875 هـ. = 1470 م.، وموضوعهما: مدينة تونس في القرن 15 – حراسة السواحل. ومصدرهما : كراس الملتقى التربوي الأول.

3) ثلاثة نصوص للرحالة المصري «عبد الباسط بن خليل» الذي زار تونس في القرن 15 ميلادي، وموضوعها : التجارة بتونس – فدية الأسرى – الأطعمة في تونس. ومصدرها : البحوث التربوية – الكراس – 1.

4) نصان للرحالة «آدرون» الذي زار تونس في العهـــد الحفصي، وموضوعهما : أطعمة تونسية – فنون الأندلس في تونس. ومصدرهما : البحوث التربوية – الكراس – 1 –.

5) تراجم شخصيات ممن برزوا في ذلك العهد – وهم :

– ابن خلدون، ومصدر ترجمته : تونس عبر التاريخ – ص. 213 وما يليها.

– ابن عرفة، ومصدر ترجمته عدة كتب، من بينها، : أعلام الفكر الاسلامي.

– خير الدين باربروس، ومصدر ترجمته : عدة كتب من مصادر الكتاب.

6) مبحثان موضوعهما : الحروب الصليبية، ومصدره عدة كتب، من بينهما : حضارة العرب – والمؤنس. والدولة التركية، ومصدراه : مفتاح التاريخ – وتونس عبر التاريخ.

وسنثبت فيما يلي تلك النصوص مرقومة حسب الترتيب أعلاه.

❶ – وصية ابي زكرياء يحي

هي وصية تدل على فضله، ويجدر بكل مسؤول أن يتحلى بما حوته. كتبها لابنه «أبي يحي زكرياء» عندما ولاه عهده سنة 638 هـ. = 1240م. لما فيه من العلم والشجاعة والكرم والعدل.

وقد أشهد على ذلك أهل الحل والعقد، من العلماء ورجال الدولة وقادة الجند وغيرهم، وقرئت عليهم تلك الوصية. ولنفاستها وطرافتها ذكرها العلامة ابن خلدون في تاريخه. وها هو نصها بمعناه الفائق، ولفظه الرائق :

« اعلم – سددك الله وأرشدك، وهداك الى ما يرضيه وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السريرة – أن أول ما يجب على من استدعاه الله في خلقه، وجعله مسؤولا عن رعيته، أن يقدم رضى الله تعالى في كل أمر يحاوله، وأن يكل أمره وحوله وقوته لله، ويكون عمله وسعيه وذبه عن المسلمين، وحربه وجهاده للمؤمنين، بعد التوكل عليه، والبراءة من الحول والقوة إليه.

ومتى فجأ أمرٌ مغلق، أو ورد عليك نبأ مرهق، فريض لبك وسكن جأشك، وارع عواقب أمر تأتيه، وحاوله قبل أن ترد عليه، ولا تقدم إقدام الجاهل، ولا تحجم إحجام الأخرق المتكاسل.

واعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمفتاحه الصبر والحزم، والأخذ مع عقلاء العيش وذوي التجارب من نبهاء الناس، ثم الاقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه، والاحسان لكبير جيشك وصغيره، الكبير على قدره والصغير على قدره، ولا تلحق الحقير بالكبير، فتجرىء الحقير على نفسك، وتغلطه في نفسه، وتفسد نية الكبير، فيكون إحسانك اليه مفسدة في كلا الوجهين، ويضيع إحسانك، وتتشتت نفوس من معك. واتخذ، كبيرهم أبا، وصغيرهم ابنا، واخفض لهم جناح الذل من الرحمة، وشاورهم في الأمر، فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين.

واتخذ نفسك صغيرة، وذاتك حقيرة. وحقر أمورك، ولا تسمع كلام الغالطين المغلطين بأنك «أعظم الناس قدرا، وأكثرهم بذلا، وأحسنهم سيرة، وأجملهم صبرا» فذلك غرور، وبهتان وزور، واعلم أن من تواضع لله رفعه الله.

وعليك بتفقد أحوال رعيتك، والبحث عن عمالهم،

والسؤال عن سيرة قضاتهم فيهم، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحدا فيهم.

ومهما وقعت ملمة فاكشفها عنهم، ولا تراع فيهم كبيرا ولا صغيرا إذا عدل عن الحق، ولا تراع في فاجر ولا متصرف إلا ولا ذمة، ولا تقتصر على شخص واحد في مسائل الرعية والمتظلمين، ولا تقف عند مراده في أحوالهم. اتخذ لنفسك ثقاة صادقين مصدقين، لهم في جناب الله أوفر نصيب، وفي رفع مسائل خلقه اليك أسرع مجيب. وليكن سؤالك لهم أفذاذا، فانك متى انتصرت على شخص واحد في نقله ونصحه، حماه الهوى على الميل، ودعته الحمية الى تجنب الحق، وترك قول الصدق.

وإذا رفع إليك أحد مظلمة وأنت على طريق، فادعه إليك، وسله حتى يوضح قصته اليك، وجاوبه جواب مشفق مصغ الى قوله مصيخ الى نازلته. ففي إصاختك له وحنوك عليه أكبر تأنيس، وللسياسة والرئاسة في نفوس الخاصة أعظم تأسيس.

واعلم أن دماء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن بالله واليوم الاخر، الا بحق أوجبه الكتاب والسنة، وعضدته الأقاويل الشرعية والحجة، أو في مفسد عاثث في طرقات المسلمين وأموالهم، جار على غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، فليس له الا السيف ، فان أثره عفاء، ووقعه لداء الأدمغة الفاسدة دواء.

ولا تُقل عثرة حسود على النعم عاجز عن السعي، فان إقالته تحمله على القول. والقول يحمله على الفعل. ووبال عمله عائد عليك. فاحسم داءه قبل انتشاره، وتدارك أمره قبل إظهاره.

واجعل الموت نصب عينيك، ولا تغتر بالدنيا وإن كانت في يدك، فلا تنقلب الى ربك الا بما قدمته من عمل صالح، ومتجر في مرضاته رابح.

واعلم أن الايثار أربح المكاسب وأنجح المطالب، والقناعة مال لا ينفد. وقد قال بعض المفسرين في قوله عز من قائل «وتركنا عليه في الاخرين» إنه النبأ الحسن في الدنيا على ما خلد فيها من الاعمال المشكورة، والفعلات الصالحة المذكورة. فليكفك من دنياك ثوب تلبسه، وفرس تذبّ به عن عباد الله.

وأرجو بك – متى جعلتَ وصيتي هذه نُصب عينيك – لم تعدم من ربك فتحا ييسره على يديك، وتأييدا ملازما لا يبرح عنك بمن الله وحوله.

والله يجعلك ممن سمع فوعى، ولبى داعي الرشد إذا دعا، إنه على ذلك قدير، وبالاجابة جدير، ولاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل» –.

ج . 1 – تاريخ ابن ابى الضياف
ص . 157 وما يليها

❷ – مدينة تونس في القرن 15

مدينة تونس هي اليوم عاصمة إفريقية « البلاد التونسية ».
لها سور منيع، وستة أبواب، وعدد كبير من الحصون المجانبة للسور. ولها ضواح شاسعة، وكلها عامرة وملتصقة بعضها ببعض.

وفي داخل المدينة، يوجد مكان خاص لكل صناعة من الصناعات، كما أن كل نوع من البضائع يوجد في مكان مخصوص.

وفي تونس عدد من المساجد يقارب المائتين. وفي خارج الباب الشرقي، توجد فنادق النصارى والأجانب، من جنوة والبندقية، وبيزة، وفلورنسا، وغيرها. وهذه الفنادق عبارة عن رحاب مربعة الشكل، محاطة كلها بالجدران. وفيها مساكن عديدة مختلفة، يدخل اليها من باب واحد. وفي تلك المساكن يقيم التجار ويبيعون بضائعهم.

وفي غربي المدينة قصر عظيم جميل، يدعى القصبة، حيث يقيم الأمير. وفي طرف المدينة شرقا، يوجد مكان

محاط بالجدران له بابان، أحدهما يواجه البحيرة، والاخر يواجه المدينة. وفي هذا المكان الذي يسمى دار الصناعة، تدخل مراكب الأمير وسفنه.

وعن بعد من ذلك، توجد بناية تسمى الديوانة ـ (الجمرك)، حيث تنزل جميع البضائع ـ سواء كانت آتية من البحر أو من المدينة، ويؤخذ عن كل بضاعة معلوم قدره العشر ـ مثلا : فضلة من القماش عن كل عشرة فضلات.

فهاتان البنايتان متصلتان ببحيرة كبيرة، وتتصل هذه البحيرة بالبحر بواسطة قنال ضيق، تعبره الزوارق محملة بالبضائع الواردة من السفن، لتنقل الى تونس، أو الواردة من المدينة لتحمل على السفن .....

« سائح مسيحي »
عن كراس الملتقى التربوي الأول

● – حراسة السواحل

.....وما زالت الى عهدنا الحاضر ديار هامة، وقصور عظيمة، وحصون قائمة بقرطاجنة، وكذلك عدد من الأسوار العالية التي تستخدم لحراسة إفريقية (البلاد التونسية). فاذا قربت سفن من قرطاجنة، فان مراكز الجراسة تتلقى إشارات خاصة، وتنقل تلك الاشارات من مركز الى مركز حتى تبلغ الى مدينة تونس.

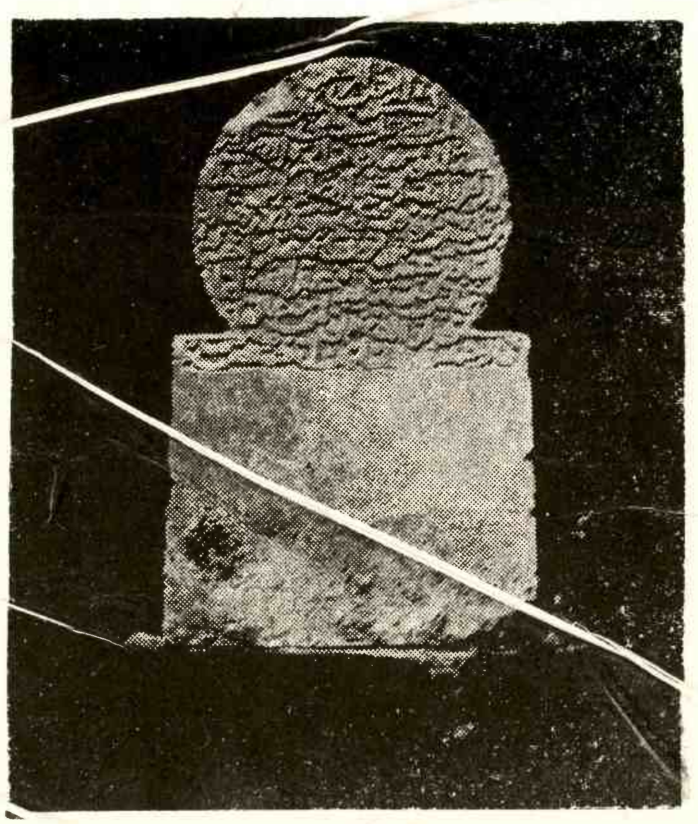
وفعلا، فان هناك – قبالة قرطاجنة – جبلا يدعى (جامور) قائما في البحر، ويفصل بينه وبين قرطاجنة بحر عميق جدا، كثيرا ما تقصده مراكب القرصان، لان المكان ملائم لعمليات النهب. وحيث أنه يخشى من تسرب النصارى، فان قرطاجنة مخفورة بحراسة محكمة، وعدد الرجال المسلمين القائمين بالدفاع عن ذلك المكان وعن كامل البلاد، لا يقل عن عشرة الاف، لا سيما أنه يكني أن تغزى قرطاجنة ليسهل احتلال كامل البلاد.

وقد حدث ذات يوم أني ذهبت مع صاحب سفينتنا الى قرطاجنة للصيد على الساحل، فاذا بمركب محمل بالاسلحة والرجال يطلع علينا، ويبعث فينا رعبا شديدا. ولو لا أننا أثبتنا بأن لنا جوازا من أمير تونس ، لوقعنا في الأسر، ووقع استخدامنا لجذب المراكب.

ولذلك، فالرأي عندي، أنه لا ينبغي لأحد من الافرنج النصارى، أن يدخل قرطاجنة، اللهم إذا استظهر بجواز صريح من قبل الأمير أو أحد أعوانه – وذلك لما ذكرت من خوفهم من النصارى .....

« سائح مسيحى »

عن كراس الملتقى التربوى الاول



نقش حفصى

4 – التجارة بتونس

وفي الثالث من محرم سنة 871 = 1466 م. جرت غريبة ...... وهي أن شخصا من التجار قدم بأشياء، ومن جملتها ثلاثة قرون ملأى بالزباد الجيد تساوي قيمتهما جملة من المال. فخاف إن دخل بها من باب المدينة أن يؤخذ عشرها. وقد جرت العادة أن من خاف عن نفسه من مثل ذلك، وزع ما معه لمن يدخل البلد من أهله. فاتفق أن خرج « أمير الباب » الذي هو عليه أخذ هذه العشور. فرآه هذا التاجر، فتوسم فيه الخير، وسأله أن يأخذ هذه الثلاثة قرون، ويدخل بها من الباب.

فأجابه الى ذلك، بعد أن قال له التاجر : لعلك تدخل بها الى المدينة وتخلصني من تعشيرها، وتسليط الظلمة علي، ويحصل لك أجر، وأثيبك على ذلك بشيء من مالي.

فقال له حبا وكرامة. وأخذ منه ذلك، وأخفاه معه، ودخل به من الباب. ثم دخل التاجر بعده، فوجده الجالس لأخذ العشور بالباب ...... فلم يمكنه أن يقابله ولا يكلمه.

فقصدني هذا التاجر، وكان بيننا معرفة من قبل ذلك. وذكرلي واقعته، وصار في غاية التخوف من أن ينكر العشار ذلك، أو يجعل له الذنب، فيأخذ جميعه. فانه جرت بعض

العادة بأن من فعل ذلك من التجار وظفر به، أخذ جميع ما فوزه وأخفاه من التعشيـر ....

فحملت همّ هذا المسكين، وقلت له : قد غررت بنفسك، فلا حول ولا قوة الا بالله. لكن قُمْ بنا اليه عساه أن يسخره الله تعالى، ونكلمه في أخذ عشره، ونعتذر اليه، وأنا أساعدك عليه. فاني أعرف هذا الشخص، فلعله لا يخيبنا، ولا شك عندنا أننا إذا أكرمناه غاية الاكرام، أن يأخذ العشور، ويرد الباقي ......

فلما قدمنا عليه، ووقع بصره علينا، نهض قائما، وأجلسني بمكان أرفع منه منزلة، وأجلس الاخر. ثم أخذت في الكلام معه سرا، وقلت : خذ العشر، ورد الباقي الى صاحبه، ولك أيضا شيء يخدمك به ولا تؤاخذه.

فقال أعوذ بالله أن يقبح بي أن يكون هذا الغريب قد ظن بي الخير، وآخذ العشر من متاعه، ولم يطلع عليه الشهود، ولا غيري من أهل الباب، وقد اعتمد في تخليصه علي، وأنا أحضر به اليك بنفسي بعد المغرب.

ثم التفت الى صاحب المتاع وقال له : متاعك عند فلان، اقصده باكر النهار تجده عنده. — وأشار اليّ. فشكرته على صنيعه، ودعوت له، وقمنا ......

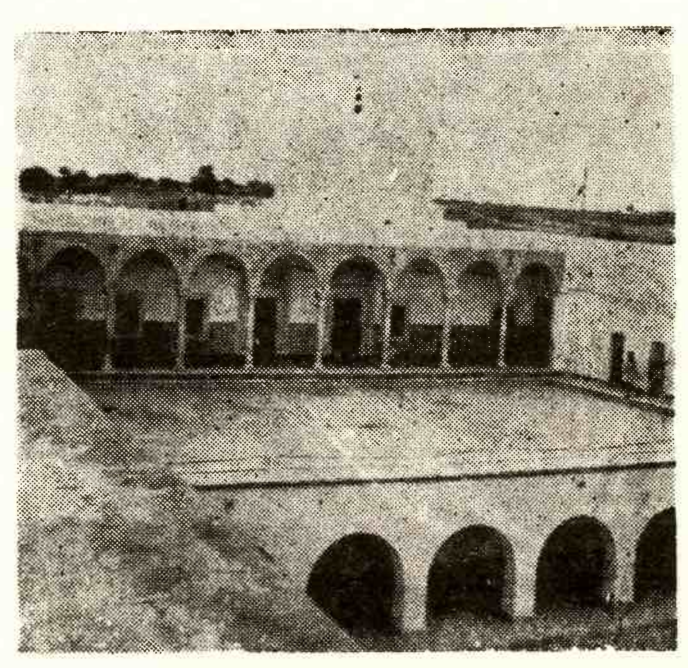
فحصل للتاجر بذلك غاية السرور، وأحضر شيئا من

نوع الهدية لنعطيه صاحب الباب اذا حضر عندى بالزباد .

وعندما حضر ومعه القرون ، واسلمها لصاحبها ، اقسم بالله انه لا ياخذ الهدية ، وانه لو ظفر بالزباد معه او مع غيره لعشره ، وكان عشرها نحو العشرين دينارا .

فعجبت من هذا الانسان غاية العجب ، مع ظلمه ووقوفه فى هذه الوظيفة ، كيف عف وكف !

« عبد الباسط بن خليل »
البحوث التربوية ـ الكراس ـ 1 ـ



زاويــة الشيـخ عامـر المـزوغى

⑤ – فدية الاسرى

وفي يوم الاربعاء الثامن والعشرين من ذي الحجة من عام 866 = 1461 م.، ورد الى مرسى تونس والي ميناها اثنان من مراكب الافرنج ومعهم أسرى للفدى ...

واتفق لي أنني نزلت الى المرسى، ونزلت في قارب المتفرج على هاذين المركبين، فطلعت الى الأكبر منهما.

وبينما أنا اتفرج فيه، إذ بشخص من الاسرى المحضرين تركي الجنسية من بلاد حاج ترخان ..... لا يعرف شيئا باللغة العربية، بل بالتركية والفرنجية، لم يبق غيره من الأسرى.

فسألته بالتركية عن اسمه. فأجابني. ثم قال لي : أنا من أسرى المسلمين. فقلت له : قد أفدي جيع أسرى المسلمين فما بالك ؟ فقال : كلموني في خبر الفدى، فلم أعرف بلغة العرب لأترجم عما في ضميري، فلم يلتفت إلي أحد، وظنوا أنني كافر.

فوعدته بأنني أفديه، فدعا لي. ثم لما نزلت اجتمعت بصاحبنا الخواجا، التاجر المعظم المكرم سيدي أبي القاسم البنيولي، فحدثته عن هذا الشخص، فقال : والله إننا ظننا أنه من الكفار ولم نفهم لغتـه.

فأعلمته باسلامه، وأنه تركي الجنسية من خيار المسلمين، لا يعرف غير لغة الترك والافرنج، فانه أسر في أيديهم.

فتلطف في قضيته، وفديته بأربعين دينارا من مالي، وأنزلته الى البر. فلازمني في خدمتي عدة سنين الى أن وردت القاهرة، فتوفي بها في طاعون سنة 873 هـ. = 1468م.

« عبد الباسط بن خليل »
البحوث التربوية — الكراس — 1 —

6 - الاطعمة في تونس

وفي يوم الاحد السابع والعشرين من ربيع الاول سنة 867 = 1462 م.، جمع التاجر المعظم، الخواجا المكرم أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي، نزيل تونس وكبير التجار بها، جماعة من أعيان التجار من أصحابه، والحجاج منهم من أهل الأندلس، وغيرهم، وعمل لهم ضيافة حافلة، بمكان من أجنة تونس - يقال له : (رأس الطابية) من منتزهات أمراء تونس، وأمكنه فرجهم.

وكنت في ذلك اليوم ممن دعي لهذه الضيافة، فرأيت هذا الجنان في غاية الاتقان والحسن .....

ثم هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولا يقال له : « المجبنة » من ماكيل الأندلس.

وصفته جبن طري يدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين، ثم يعجن السميد عجنا محكما جيدا حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلاد، وأغلظ قواما منه بيسير، ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة، ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك، ويجمع حتى يصير الجبن حشوا لها. ثم يبسط قليلا، ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن، فيقلى، ثم يرفع، ويرش عليه السكر المدقوق ناعما، ومعه اليسير من الكمون. وقد عمل ذلك بين أيدي الحاضرين...

« عبد الباسط بن خليل »
البحوث التربوية - الكراس - 1 -

❼ – اطعمة تونسية

١

.... وقد أكلنا عند أحد الأهالي، في منزله بالبادية، خارج مدينة تونس فجلسنا على أرضية مجلزة تغطيها زربية.

فأتي إلينا أولا بقصعة كبيرة مستديرة، ملأى بمرطبات مصنوعة من الدقيق، والعسل، والزيت، والزبيب – « لعله المقروض » – .

وتحت ذلك في قعر القصعة كانت كويرات من العجين في حجم الجلبان تسمى (بيزين). وقد وقع طبخها في مرق الدجاج. وهي تؤخذ عند الأكل بجميع أصابع اليد. (1)

ثم أوتي الينا باناء كبير به جفنات من الصلصال، على عدد المدعوين، وفي كل واحدة : فروج مطبوخ وملفوف في رداء من دوّارة الخروف.

ثم قدمت لنا ثمار : لوز، وتمر، وتفاح، وأخيرا : حبات من الخشخاش تجلب النوم.

---

1) لعلـه المحمص .

وفي المساء، بعد أن نام البعض، واشتغل البعض الاخر في اللهو، قدمت لنا قصعة كبيرة من الكسكس الذي يكثر أكله في هذه البلاد، كما يكثر استهلاك الفول والحمص داخل الفرن ...

« رحـــلة آدرون »

البحوث التربوية ــ الكراس ــ 1 ــ

٨ – فنون الاندلس فى تونس

.... وفي خارج المدينة حدائق جميلة للغاية، لايقل عـددها عن أربعة آلاف حديقة. فليس هناك أي ساكن خارج المدينة الا وله بستانه الخاص بــه.

وتتضوّع من تلك البساتين روائح من شتى أنواع الأزهار. كما انها تشتمل على أنواع عديدة من الأشجار المثمرة....

وهذه البساتين منظمة بعناية كبيرة، وفي كل منها بنايه مرتفعة جميلة، أرضيتها مغطاة بحجارة مزينة. كما يوجد فيها صهريج جميل جدا، وحمام للصيف، وآخر للشتاء....

وقد زرنا عددا وافرا من هذه الحدائق، وخاصة حديقة الابن الكبير للأمير : يعترضنا عند الدخول باب كبير يفتح على مسكن جميل جميع حيطانه مغطاة بنقش حديدة، ويشبه ذلك النقش الجيد النقوش الرقيقة التي تغطي خشب الأسرة المستعملة في هذه الربوع.

ويغطي الأرضية جليز أبيض ناصع. وأصفر ليموني، وأزرق سماوي، وأسود، مع أشكال وصور في ألوان مختلفة. وفي وسط الأرضية بكل قاعة حوض مستدير من المرمر الأبيض عادة. وفي وسط الحوض نافورة صغيرة.

أما سقف البيوت، فهو مزين ومذهب ومنقوش بأشكال عديدة. والنوافذ مربعة الشكل صغيرة . ترتفع عن الأرض قدر قدمين فقط، بحيث يرى منها الجالس في القاعة ما يجري خارجها.

وبالقرب من تلك البناية صهريج مرتفع عن سطح الأرض، ويقع الدخول اليه من وسط الدار عن طريق مدرج عريض.

ويأتي الماء الى ذلك الصهريج، من بئر عميقة يخرجه منها جمل مغطى العينين، وذلك بواسطة أوعية مشدّة الي عجلة تدور. فكلما ارتفعت أوعية جاءت ملأى ، وصبت في حوض مربع الشكل، ثم تنزل الى البئر وتمتلىء من جديد، وهكذا.

وفي داخل الحوض عجلة أخرى تدفع الماء في قنوات منحدرة المستوى، فتتدفق بعد ذلك في أحواض الغرف كأنها خارجة من صنبور.

ومن هنالك تنتقل المياه عن طريق قنوات أخرى الي الصهريج، وتستعمل فيما بعد لتوزع في الحديقة، في سواقي مبنية علي حيطان قصيرة.

« رحلة آدرون »

البحوث التربوية ـ الكراس ـ 1ـ

⑨ - ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن خلدون من أصل أندلسي.

ولد بمدينة تونس في غرة رمضان سنة 732، الموافق لـ 27 ماية سنة 1332 – في مدة الأمير الحادي عشر «أبي بكر بن أبي زكرياء»

زاول تعلمه بمدينة تونس إلى أن ملأ وطابه من العلوم، وأصبح متضلعا: في الفنون، والمنطف، والفقه، والفلسفة، والأدب، والتاريخ – واعتبر أعلم رجال زمانه.

ومنذ سنة 748 هـ. = 1347 م.، دخل محترك الحياة فتقلد عدة وظائف بتونس، وبفاس، وأسندت إليه عدة مأموريات هامة: في الاندلس، ثم في تونس. واشتغل بالتدريس في القاهرة، ثم تقلد خطة قاضي القضاة بها.

وفي سنة 789 هـ. = 1387 م.، أدى فريضة الحج، ثم استقر بالقاهرة، واستأنف الاشتغال بالتدريس إلى أن توفي ودفن بها، في 25 رمضان سنة 808، الموافق لسابع عشر مارس سنة 1406.

ومن آثـــاره :

1) مقدمة تاريخه العجيبة — المشهورة بـ(مقدمة ابن خلدون). وهي من أجل وأنفع الكتب لما فيه من الفلسفة العمرانية والآراء الاجتماعية. وقد ترجمت الى اللغة الفرنسية وغيرها، وكتب عنها أنها خزانة علوم : اجتماعية، وسياسية، واقتصادية ، وأدبية.

2) وتاريخه العظيم المعروف بـ(كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر . في أيام العرب والعجم والبربر).

وكان ابن خلدون دقيق الملاحظة، راجح العقل، بعيد النظر في احكامه التاريخية. ويعتبر نموذجا لكتّاب عهد (الدولة الحفصية) الذي بلغت فيه العربية مستواها العالي.

ويعتبر أثره برهانا على مبلغ الشوط الذي قطعته الحضارة بتونس، في ذلك العهد. وقد قلد به لتونس ذكرا حميدا. وكسابه سمعتها مجدا مؤثلا.

عن « تونس عبر التاريخ »
ص. 213 وما يليها

⑩ — ابن عرفة

هو أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي نسبة الى قبيلة (ورغمة) المستقرة بالجنوب الشرقي التونسي حول مركز ولاية مدنين.

ولد بتونس سنة 716 هـ. =1306 م.، في مدة الأمير التاسع «أبي يحي زكرياء الأول».

نشأ بالعاصمة، حيث تلقى مختلف علوم اللغة والدين وغيرها بجامع الزيتونة، وتكون تكونا جامعا بين الملكات، ورسخ قدمه في المناهج بين شرعية وأدبية وعقلية ورياضية. واشتهر بين شيوخه أقرانه بالجد والاجتهاد، وبالعبادة والزهد والورع.

ثم انتصب للتدريس، فاشتهر بغزارة العلم ومتانة الدين، سلمت له المهارة والاتقان حتى صار مرجعا. فعظمت سمعته، وعلا نجمه، وأصبح أشهر علم بالبلاد.

وفي سنة 772 هـ. = 1370 م.، ولي إمامة جامع الزيتونة، ثم انتخب للافتاء بالعاصمة. فشاع ذكره، وذاع صيت عمله، وازداد الانتفاع بعلمه، واعتبر «إماما».

وفي سنة 790 هـ. = 1388 م، سافر الى بلاد المشرق حيث تقدمته سمعته الذائعة. وبعد أن أدى فريضة الحج

وسنتي العمرة والزيارة، أقام مدة أقبل أثناءها على الأخذ عنه مشاهير علماء الحرمين الشريفين والبلاد المصرية.

وإثر رجوعه، استأنف نشاطه الى أن توفي سنة 803 هـ. = 1400 م. ودفن بمقبرة الزلاج بتونس – وذلك في مدة الأمير السابع عشر « أبي فارس عبد العزيز ».

ومـن آثاره : عدة تاليف مفيدة في فنون عديدة – منها : كتاب المبسوط في الأصول – ومختصر في علم الكلام – ومختصر في الفقه مشهور باسمه، قضى في تأليفه اثني عشر عاما، وامتاز بحسن سبك المسائل، ومتانة جمعها، وبراعة تفريعها وتفنينها، وبضبطها بـ(التعريف) الذي أصبح عمدة في الميدان العلمي الى أن صار يشترط ذكره في الموضوع الكتابي المسمى بـ(المقالة) في امتحان شهادة التطويع بجامع الزيتونة.

عن عدة مصادر بتصرف
من بينها كتاب : أعلام الفكر الاسلامي
للمرحوم الشيخ محمد الفاضل بن عاشور

11 – خير الدين باربروس

خير الدين باربروس – أي ذو اللحية الصهباء – هو من مسلمي بلاد اليونان التي كانت تحت حكم تركيا. ومثله أخ له يدعى « عروج ».

وكانا يتعاطيان القرصنة البحرية – أي الاغارة بواسطة أسطولهما : على سواحل بلدان النصارى بحوض البحر الأبيض المتوسط – وعلى المراكب التابعة لها، لنهبها، وكسب الغنائم والسبايا – وذلك تحت رعاية الأمراء الحفصيين الذين كانوا يقاسمونهما ما يتحصلان عليه.

وكان من بين من عملوا تحت لوائهما عدد كبير من مهاجري الأندلس، وكذلك مسلم تركي من منطقة الأناضول يدعى « درغوث باشا » لم يلبث أن برع في قيادة السفن حتى صار رئيسا.

وبفضل ما اكتسبه من اموال طائلة، كون أسطولا عتيدا خاصا، واستقل، واستمر يشتغل بالقرصنة البحرية، فيغزو ويغير، ويلتجىء الى السواحل التونسية، فقوي بذلك شأنه، واكتسب شهرة كبيرة.

وفي سنة 957 هـ. = 1550 م. حاصره النصارى بالمهدية، فأفلت منهم الى جزيرة جربة، فالتحقوا به وحاصروه فنجا

منهم. وولى وجهته نحو طرابلس فافتكها من الاسبان الذين كانوا يحتلونها ، وصار واليا عليها – وذلك سنة 958 هـ. = 1551 م. – .

وبعد سنتين، هاجم جزيرة جربة واحتلها وأطرد الاسبان منها، بعد أن مكثوا بها ستة أشهر، وامتلأت أيديهم من مغانمها.

ثم لبى دعوة أهل القيروان حيث كان من أمره ما سبق لنا إثباته. ثم استأنف القرصنة ، فمات وهو محاصر لجزيرة مالطة سنة 973 هـ. = 1565 م. – .

أما الأخوان « خير الدين باربروس، وعروج »، فقد صارا من أشد القراصنة بأسا، واكتسبا أموالا طائلة، وشهرة عظيمة، وتوطدت الصلة بينهما وبين الأمير الحادي والعشرين « أبي عبد الله محمد » الذي أباح لهما الاستمرار في نشاطهما، مقابل دفع الخمس له مما يتحصلان عليه. فكانا يتوليان القرصنة، ويلتجئان بأسطولهما الى جزيرة جربة، ومدينة المهدية، وغيرهما من البلدان الساحلية التونسية، تحت حماية ذلك الأمير الذي كان يقاسمهما ما يتحصلان عليه.

ونتيجة لتعدد غارات القرصنة على سواحل إسبانيا، قام ملكها برد الفعل ضد بلاد الجزائر التي كان بها نقط انطلاق للقرصنة، وحاصر مدينة الجزائر.

فاستنجد سكانها بالأخوين « خير الدين باربروس وعروج »، فأنجداهم واحتلاها. ثم قاما بغارة على مدينة تلمسان واحتلاها، واستشهد « عروج ». وأصبحت مدينة الجزائر وما حولها بيد « خير الدين باربروس » — وذلك سنة 924 هـ. = 1518 م. — .

فأعلن ولاءه لدولة تركيا، فأمدته بقوة تمكن بفضلها من التوسع ، ومن طرد الاسبان من بجاية. وأصبح واليا تركيا ببلاد الجزائر، وقضى على مناورات سكانها — وذلك سنة 930 هـ. = 1523 م.

وإثر ذلك، اغتنم فرصة ضعف الدولة الحفصية، وما جد بالبلاد التونسية من حوادث وقلاقل، فهاجمها سنة 935 هـ. = 1528 م.، وكان ما كان من أمره وسبق لنا إيضاحه، فرجع الى الجزائر حيث لقي حتفه.

عن عدة كتب من مصادر
الكتاب — بتصرف

12 – الحروب الصليبية

سبق لنا التعرض الى الحملة الصليبية على البلاد التونسية، التي قام بها ملك فرنسا لويس التاسع، المسمى القديس لويس، في مدة الأمير الحفصي الثاني (محمد المستنصر بالله).

ونضيف الى ذلك : أن تلك الحملة هي الثامنة والأخيرة بالنسبة للحروب الصليبية، وأنه من المناسب القاء نظرة على التي سبقتها – خاصة وأن للأخيرة ارتباطا بالسابعة.

هي حملات شنها نصارى من أوروبا الغربية على العرب المسلمين، لينتزعوا منهم (فلسطين العربية) التي كانت عاصمتها مدينة القدس، وفيها قبر عيسى بن مريم حسب زعمهم !

وسميت بـ(الصليبية) لأن أولئك النصارى كانوا يضعون شارة الصليب على ثيابهم وأسلحتهم.

وقبل شن تلك الحملات، كانت الصلة بين الغرب والشرق، أو بالأحرى بين نصارى أروبا وسكان بلاد الشام العرب، مقصورة على زيارة مدينة القدس من طرف نصارى أروبا.

وقد فرض تلك الزيارة رجال الدين المسيحي الأروبيون وعدوها مكفرة عن أسوإ الجرائم، ترغيبا للنصارى على تأديتها، وتحمل المصاعب والمخاطر والمشاق من أجل القيام بهـا.

ولذلك كان عدد الزوار في نمو وازدياد. وكانت قوافلهم مؤلفة في معظمها من المجرمين الأشقياء، الذين ما ما كان ليدفعهم الى القيام بالزيارة غير الفزع من نار جهنم !

ومن أجل ذلك، وبسبب بعد المسافة، وقلة المواصلات وكثرة المشاق، كان الزوار يعتبرون أنفسهم من الظافرين فيكثرون من الضجيج عندما يؤمون مدينة القدس، ويدخلونها على صوت الصنوح وضوء المشاعل. ورغم ذلك، كان حكام مدينة القدس المسلمون يتسامحون مع أولئك الزوار، ويحسنون معاملتهم.

هذا، وقد دعا النصارى الى شن حملاتهم الصليبية تغير المعاملة نحوهم، بمدينة القدس. ذلك أن « السلجوقيـين » ما أن أصبحوا يحكمون فلسطين، حتى أخذوا يجادلون الزوار في حق الدخول بدون إذن الى مدينة القدس. ثم فرضوا عليهم الاستئذان، ودفع ضريبة. فاعتبر الزوار ذلك سوء معاملة مـن طرف المسلمين.

واستشاط غيظا أحدهم، ويدعى (بطرس النـاسك ـــ

Pierre l'Ermite)، فتوجه الى رومة عاصمة إيطاليا، واتصل بالبابا (أربانوس الثاني – Urbain II)، رئيس الديانة المسيحية، وباذن منه، أخذ يجوب بلاد إيطاليا وفرنسا، ويخطب في الجموع، ويدعو الى محاربة العرب المسلمين، لافتكاك فلسطين من أيديهم، لتصبح مدينة القدس تحت سلطة النصارى، ويتم إنقاذ قبر المسيح عيسى بن مريم !

وكانت دعوته الشرارة الأولى للحروب أو الحملات الصليبية التي دامت قرابة القرنين، وبلغت عدتها ثمانية.

الحملة الاولى

شجع على شنها البابا « أربانوس الثاني »، بعقده في 26 نوفمبر 1095 = 488 هـ.، بساحة كليرمون فران بفرنسا، مؤتمرا دينيا حضره بطرس الناسك وجموع كثيرة من النصارى. وتحت ترديدهم لعبارة : (ديوس لوفولت – Deus le Volt)

– أي الرب يريد ذلك، تحالفوا على الزحف الى فلسطين لانتزاعها من أيدي المسلمين، وإنقاذ قبر المسيح، وأجمعوا على أن يبدأوا بالزحف في أوت 1096 = 460 هـ.، حتى يجمع أولياء الأمور جيشا كبيرا قادرا على القيام بذلك.

وما أن شاع الخبر، حتى اشتعلت نفوس نصارى أروبا الغربية حمية، واستعد منهم 130 ألف مقاتل. ولم يرغبوا

في انتظار جيش منظم، بل تجمعوا بألمانيا عند نهر الدانوب، منذ حلول ربيع سنة 1096 م.، وعلى رأس أهم عصاباتهم « بطرس الناسك »، و (الفارس غوتيي الفقير — le chevalier Gautier sans avoir) ومنهم كانت نواة صليبيي الحملة الأولى.

ومن هنالك قصدوا بلغاريا. فأكرموا في البلدان التي مروا بها ، ولكن أهل بلغاريا أبوا أن يضيفوهم مجانا. فأخذوا ينهبون قرى تلك البلاد، ويذبحون أهاليها. فكان رد الفعل شديدا، وبلغ درجة أن أجبر الصليبيون على الرحيل. فجعلوا وجهتهم عاصمة البيزنطيين إذذاك — وهي (القسطنطينية) التي عرفت فيما بعد باسم : استنبول — وذلك عند فتحها بالاسلام.

وبها وجدوا عصابات أخرى، فانضموا الى بعضهم وأخذوا يقتلون وينهبون، ويأتون ما يفوق الوصف من الأعمال الوحشية. فتخلص منهم البيزنطيين، بنقلهم الى آسيا الصغرى. فاقترفوا هنالك ضد المسلمين والنصارى الجرائم الشنيعة. وقابلهم الترك بالمثل، وأقاموا من عظامهم هرما عظيما.

وهنالك، التحق ببقاياهم فيالق منظمة تامة العدة مؤلفة من سبعمائة ألف مقاتل. فانضموا الى بعضهم، وجعلوا وجهتهم القدس، وأخذوا يخربون البلدان التي يمرون بها. فكشر لهم الجوع عن أنيابه، واضطرب حبل نظامهم، وفتكت

الأمراض والمجاعة بهم فتكا ذريعا. والتحقت بهم في طريقهم فيالق أخرى منظمة من الصليبيين تامي العدة، وبهم بلغ عدد من خرجوا للحملة الأولى مليون صليبي . لكن الوقائع والمجاعة والأوبئة والمنازعات قد تجمعت ضدهم؛ حتى لم تبق منهم سوى عشرين ألفا تمكنوا من الوصول الى القدس، والاستيلاء عليها ـ وذلك في 15 جويلية سنة 1099 = 493 هـ.

وبالقدس، قتلوا من المسلمين عددا مهو لا، وذبحوا منهم عشرة آلاف. فأصبح المرء لا يرى في الشوارع سوى أكداس من الرؤوس والأيدي والأرجل، ولا يمر الا على جثث القتلى. ثم أبادوا من وجدوا من المسلمين واليهود وخوارج النصارى، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا، وكان عددهم 60 ألفا .

ومن أجل ذلك هاج الشرق وماج، وتناسى المسلمون جميع عوامل الانقسام، وأخذوا ينادون الى الجهاد. وقد تطلب جمع شتاتهم وتجمعهم وقتا طويلا، لكنه أحدث هلعا في قلوب الصليبيين الذين أخذوا يستغيثون بأروبا.

الحملة الثانية

تكونت سنة 1149 م. = 544 هـ. من جيوش جرارة فرنسية وألمانية هبت لنجدة الصليبيين بالقدس. وكانت

الفرنسية منها بقيادة ملك فرنسا (لويس السابع – Louis VII)، والالمانية منها بقيادة قيصر المانيا (كونراد الثالث Conrad III).

وقد فشلت هذه الحملة، إذ أبيدت جيوشها على بكرة أبيها من طرف العرب المسلمين، الذين زحفوا فيما بعد على القدس، بقيادة (صلاح الدين الأيوبي)، وتمكنوا من استردادها – وذلك سنة 1187 م. = 583 هـ.، بعد أن بقيت بيد الصليبيين 88 سنة ميلادية.

الحملـــة الثالثـة

تكونت سنة 1189 م. = 585 هـ.، من جيوش فرنسية وإنكليزية وألمانية، لاسترجاع القدس. وكانت الفرنسية منها بقيادة ملك فرنسـا (فيليـب أوغسـت – Philippe Auguste). والانكليزية منها بقيـادة ملك أنكلترا (ريشار قلـــب الأسـد – Richard Cœur de Lion). والألمانية منها، بقيادة قيصر ألمانيـا (فريدريك باربروس – Fréderic Barberousse) الذي مات باسيـا الصغـرى حينما كمـا يغتسل في (نهـر البردان – قرصوا – Fleuve Cydnus de Cilisée). ولم يتحقق هدف هذه الحملة. وكان نصيب جيوشها الفشل والخسران، ورجع مـــن بقي حيا من حيث أتـى.

الحملــة الرابعــة

تكونت سنة 1202 م. = 599 هـ.، من جيوش فرنسية بقيادة أمير الفلاندر « بوادان ». وكان هدفها استرجاع القدس. وقد جعل صليبيوها وجهتهم القسطنطينية. فابحروا من ميناء « زارة » الايطالية، ونزلوا بها. فنهبوا ما فيها، وحطموا كل ما لم يكن من الذهب أو الفضة، وكسروا تماثيلها، وأتلفوا الكتب المهمة الموجودة بها. وقد أخفقت هذه الحملة أيضا، ورجع من بقي حيا من جنودها من حيث أتوا.

الحملــة الخامســة

تكونت سنة 1217 م. = 614 هـ.، من عصابات أتت من كل حدب وصوب. وكان هدفها مهاجمة مصر طمعا في الغنائم. ولكن ما أن نزلت بمصر حتى اضطرت الى التقهقر والرجوع من حيث أتت.

الحملــة السادســة

تكونت سنة 1228 م. = 626 هـ.، من جيوش المانية بقيادة قيصر ألمانيا « فريدريك الثاني». وقد وصل صليبيوها الى القدس، ولكنهم أحسوا بضعف، فاكتفوا بزيارتها تحت حماية حكامها المسلمين، وعادوا من حيث أتوا.

الحملــة السابعــة

تكونت سنة 1248 م. = 646 هـ، من جيش فرنسي يضم 50 ألف مقاتل، أعـده ملك فرنسا لويس التاسـع، الذي لم يهضم ما منيت به من خيبة الحملتان السابقتـان. وقام على رأسه بغزو مصر، فكان الحسران حليفه، إذ كسر جيشه قبل أن يبلغ القاهرة، ووقع هو أسيـرا. فطيـف بـه راكـبا على جمل ووجهه الى خلف. ثم سجن في دار على ملك « ابن لقمان » تحت حراسة طواشي « خصي » اسمه « صبيح ».

فافتدى نفسه بقناطير من الذهب، ورجع الى فرنسا بعد أن غاب عنها سنتين دون أن يرى القدس.

ثم عزم على العودة الى مصر. فعلم بذلك صاحبها، وكتب له رسالة بعث بها اليه مع رسول تلاها بين يديه قائما. وقـد جـاء فيهـا :

قـل للفـرنسيس اذا جئتـــه
مقال صدق من مقول فصيـح
اثبـت مصـر تبتغـى ملكهــا
تظن ان الدين باطل ريـــح
وقـل لهـم ان ازمعـوا عـــودة
لاخذ ثأر او لفعل قبيـــح
دار « ابن لقمان » على حالهـــا
والقيد باق والطواشى « صبيح »(1)

1) ص 137 ـ المؤنس ـ بتصرف .

فلما سمع الملك « لويس التاسع » ذلك، ذلت نفسه، لكنه سرعان ما نسي ما تلي عليه، وما حدث له بمصر. فأبدل عزمه، بتحريض وإغراء من أخيه « صاحب جزيرة صقلية »، وتشجيع من « البابا » وبعض ملوك أروبا، وكون :

الحملـــة الثامنـــة

وذلك سنة 669 هـ. = 1270 م.، من جيش فرنسي يضم ثلاثين ألفا من المشاة، وستة آلاف من الفرسان.

وقد أسلفنا القول عن هذه « الحملة » التي غزت البلاد التونسية، عند الكلام عن الأمير الحفصي الثاني (محمد المستنصر بالله) الذي حدثت في مدته، والتي كانت خاتمة « الحملات ».

والجدير بالذكر، أن الصراع من أجل « فلسطين العربية »، المتمثل في الحروب الصليبية، كان منحصرا بين الصليبيين والمسلمين، وأن السكان اليهود لم يقوموا بأي دور أو أدنى حركة.

ومن جهة أخرى، فقد كان من أثر الحروب الصليبية أن اتصل الغرب بالشرق العربي الاسلامي، بعد أن كانت الصلة بينهما مقصورة على زيارة مدينة القدس من طرف نصارى الغرب.

ومما يجب ذكره، أن الصليبيين قصدوا فلسطين العربية الاسلامية وهم يحسبون أنفسهم أرفع منزلة من أهلها. وكانوا يظنون أن المسلمين وثنيون يعبدون (محمدا) ويؤلهونه، ولكنهم ما كادوا يتصلون بهم حتى زالت العشاوة عن عيونهم، وانقلبت أفكارهم، وتعدلت عواطفهم، ثم انتهى أمرهم فيما بعد الى الاعجاب بتقاليد المسلمين وحضارتهم وأخذوا بها.

ومن ذلك يتجلى أن اتصال الغرب بالشرق، فضلا عن تأثيره الحميد على أروبا كما سنوضحه، فانه قد أدى الى تبدل ظاهر في شعور الصليبيين، وأثر في حياتهم، وكان من أقوى العوامل على نشر الحضارة في أروبا.

وبالفعل، فان الشرق العربي – ومنه فلسطين – كان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب. وكان الشرقيون بما فيهم عرب فلسطين مثاليين في تصرفاتهم مع النصارى.

أما الغرب، فكان غارقا في بحر الهمجية، وكان الصليبيون وهم من أهله، وحوشا ضارية في سلوكهم، وبهائم ليس فيهم سوى فضيلتي الشجاعة والقتال. ويكفي دليلا على ذلك، أنهم أثناء حملاتهم – كانوا ينهبون الاصدقاء والأعداء، ويذبحونهم على السواء، وأنهم خربوا أينما مروا ما لا يقدر بثمن من الكنوز الموروثة عن الأقدمين، وأن الشرق لم ينتفع منهم بشي، لأنه لم يكن عندهم ما يفيده.

وبعكس ذلك الصليبيون، فانهم قد اكتسبوا من الشرق عند إقامتهم بفلسطين، مدة 88 سنة، بعض العادات وشيئا من الذوق الشرقي : في الأطعمة، والأشربة، أخصه ما يتعلق بالسكر والتوابل. وأقلعوا عن لباسهم الأروبي، وتعلقوا بالأزياء الشرقية التي كانت أدعى الى الراحة. وبلغ تعلقهم ببعض العادات والعقائد الشرقية، أن كانوا يصلون أحيانا في المزارات التي يقدسها المسلمون . وبخصوص السكنى آثروا البيوت الشرقية الطراز. وما فيها من إيوانات واسعة ومياه جارية.

ومن أثر اتصال الغرب بالشرق — عقب الحروب الصليبية — نمو التجارة بين أروبا والعرب المسلمين، وعقد المعاهدات التجارية بينهما. وبفضل ذلك تمكن الغربيون من تقليد نفائس الشرق من الثياب وغيرها، ومن ترقية الصناعة بأروبا.

فقد اقتبسوا صناعة الخشب والمعادن، والميناء والزجاج والنسائج الحريرية، والصياغة المتقنة — وهي صنائع كانوا يجهلونها. كما أخذ صانعو الأسلحة ونجاروها ومن اليهم، ما كانوا يجهلونه بأروبا من المعارف الصناعية. وبواسطة البنائين تحول فن العمارة في أروبا تحولا تاما. وعن الشرق أخذت أروبا أيضا صنع المرايا الزجاجية المطلية المغشاة بغشاء معدني، فاحتلت مكان الفولاذ الصقيل الذي كان مستعملا بها.

وكان من أثر ذلك الاتصال أيضا، أن استعادت أروبا الحمامات العمومية. وقد كانت هذه الحمامات رائجة في عهد الرومان إلا أن النصرانية لم تحبذها !

كما حمل الصليبيون معهم من الشرق كتابا هاما في الطب، ترجمة عن العربية أسطفان الانطاكي، ويعرف بكتاب المجوسي في الطب (ص. 784 — ج. 3 — من تاريخ العرب، تأليف حتي جرجي جبوز طبع دار الكشاف 1951).

وما أن انتشرت محتوياته في أروبا، حتى أنشئت كثير من دور المعالجة والمستشفيات ودور مداواة البرص. وبذلك انتشرت طريقة التداوي المنظم.

يضاف الى ذلك، أن الصليبيين سمعوا قصص (كليلة ودمنة) وغيرها من القصص الشرقية، ونقلوها الى أوطانهم. وما أن انتشر أمرها، حتى أصبح بعض كتابهم يستمدون منها بعض حكاياتهم.

ونشر الصليبيون بأروبا أيضا — إثر رجوعهم إليها — أحدث أنواع الطواحين الهوائية، وأنواعا عديدة من النباتات والأشجار المثمرة — ومنها : السمسم « الجلجلان »، والذرة « الدرع »، والخروب، والأرز، والليمون، والمشمش والبطيخ.

ونقلوا أيضا : أنواع البسط والسجاجيد، والأنسجة الموشاة، وأنواع الروائح العطرية، والتوابل، والحلويات الشرقية،

وحجر الشب والند، والسكر الذي كان مجهولا في أروبا — إذ كان أهلها يستخدمون العسل لتحلية أطعمتهم.

وفي الميدان الحربي، نقل الصليبيون : استخدام الحمام الزاجل لإرسال المعلومات — وعادة إشعال الأنوار احتفالا بالنصر — وعادة إجراء حفلات السبق ولعب الخيل — وعادة استعمال الأوسمة والشارات للفرسان.

وبالاضافة الى ما تقدم، فان الأروبيين نقلوا عن الشرق : مباديء الديمقراطية، وتحرير الزراع والصناع، مما فسح المجال لأن تصبح الثقافة فيأروبا أمرا مشاعا بين جميع الطبقات.

وهكذا يتضح أن اتصال الغرب بفلسطين العربية كان لـه أثره العظيم في تمدينه — ويتجلى أن هذا البلد كان سببا في إخراجه من التوحش ، وأعد النفوس الى التقدم.

فهل من باب اعتراف الغرب بالجميل : أن ينصب بالقوة مشردي اليهود بفلسطين، ويحلهم محل سكانها العرب !

وهل من باب الرضى أو عدم الاكتراث ملازمة « البابا » الحالي وأحفاد الصليبيين الصمت، إزاء اعتداء اليهود على ما تحويه القدس — ومنها مقدسات المسيحيين !

بتصرف — عن عدة مصادر من بينها :
حضارة العرب لغوستاب لوبون،
والمؤنس لابن أبي دينار.

13 — الدولة التركيـة

من خلال ما حدث في مدة الأمراء الأربـع الأخيرين، يتجلى الصراع الذي أسفر في النهاية عن سقوط الدولة الحفصية.

لذا رأينا من المناسب التعريف باحد مصدري ذلك الصراع وهو : الدولة التركية، أو دولة تركيا أو الدولة العثمانية — التي أصبحت بلادنا تابعة لها إثر سقوط تلك الدولة.

هي دولة تأسست سنة 699 هـ. ـ 1300 م.، ودامت 643 سنة هجرية. عاصمتها مدينة « بروسا » في الـ 158 سنة الأولى، ومدينة « القسطنطينية » في المدة الباقية.

مؤسسها هو (عثمان بن أرطغول) الذي يرجع نسبه الى قبيلة تركية استقرت بجهة الأناضول منذ القديم، وأسلمت في منتصف القرن الرابع الهجري.

ملوكها يلقبون بالسلاطين، وبلغ عددهم 27 سلطانا أولهم هو مؤسسها. وقد نشأت إمارة ضعيفة، وعرضة للخطر، وفي حالة حشد عام خوف الحرب. ثم أخذت أركانها تثبت، ومنطقة نفوذها تتسع على حساب الروم، الى أن أتمت جيوشها فتح البلاد، التي تعرف اليوم بتركيا، بالاستيلاء، بقيادة السلطان السابع (محمد الفاتح)، على مدينة القسطنطينية —

التي صارت تعرف بأستنبول – وذلك سنة 857 هـ. = 1453م.

وكان تاريخ ذلك الاستيلاء فاتحة عصر جديد هو عصر الأمبراطورية التي تمكنت خلاله شيئا فشيئا من الاستيلاء على كثير من الممالك الأوربية– منها : اليونان، وألبانيا، ورومانيا، وبلغاريا، والمجر، وعلى معظم البلدان العربية والاسلامية – ومنها، مصر ، التي أصبحت جميعها «إيالات تركيـة»

وكانت مصر عند استيلاء الجيوش العثمانية عليها سنة 924 هـ. = 1517 م. مقر الخلافة العباسية التي تجددت بها منذ سنة 660 هـ. = 1262م.، بعد سقوطها بمدينة بغداد قبل ذلك بأربع سنوات.

وبالاستيلاء عليها سقطت الخلافة العباسية من جديد. وتسلم السلطان العثماني التاسع «سليم الأول» من الخليفة العباسي «المتوكل على الله» مقاليد الخلافة – وهي الاثار النبوية الشريفة – أي : اللواء، والسيف، والبردة. كما تسلم منه مفاتيح الحرمين الشريفين. وبذلك أصبحت الخلافة الاسلامية في أيدي السلاطين العثمانيين، وأصبح الواحد منهم في آن واحد (سلطانا وخليفة).

وإثر وفاة ذلك السلطان سنة 927 هـ. = 1520 م. خلفه «سليمان القانوني» فكان السلطان العاشر. واليه أعلن ولاءه

« خير الدين باربروس » – بعد أن أصبحت مدينة الجزائر وما حولها بيده سنة 924 هـ. = 1518 م، – ، ودخل في طاعته : بالدعاء في الخطب الجمعية، وبضرب السكة باسمه. فأمده بقوة تمكن بفضلها من التوسع ومن طرد الاسبان من بجاية، وقضى على مناورات السكان، وأصبحت بلاد الجزائر « إيالية عثمانية » وأصبح هو واليا عليها. ثم هاجم البلاد التونسية سنة 935 هـ. = 1528 م.، وكان من أمره ما سبق إثباته

وخلف « سليمان القانوني » بعد وفاته سنة 974 هـ. = 1566م، السلطان الحادي عشر « سليم الثاني » الذي هوجمت البلاد التونسية في مدته، من طرف قوات عثمانية، مرتين. كان الانتصار حليفها في المرة الثانية. وبذلك أصبحت البلاد التونسية « إيالة عثمانية » – حسبما تقدم إيضاحه.

وإثر وفاته سنة 982 هـ. = 1574 م، خلفه على التوالي ستة عشر سلطانا – آخرهم (عبد المجيد) الذي خلعه، (مصطفى كمال) سنة 1342 هـ. = 1924 م.، إثر إعلانه « الجمهورية » بالبلاد التركية – في 29 أكتوبر سنة 1923 –.

بتصرف عن « مفتاح التاريخ »
لمؤلفه المرحوم البشير صفر
وعن « تونس عبر التاريخ ».

الخاتمة

والان، وقد انتهيت – أيها المواطن – من مطالعة هذا السفر المتواضع ، الذي أغناك عن البحث والتنقيب ، وتعرفت من فحواه على مجتمع بلادك خلال ذلك العهد الذي دام 347 سنة هجرية، واستعرضت صورا شاملة ومجملة عن حياته وآثاره في مختلف الميادين، فاني لا اشك في أنك أحسست باعتزاز قويت بفضله أصالتك بوطنك، وأهيب بك أن تربط حاضرك بماضيك، وتستخلص العبر لما ينبغي أن يكون عليه مستقبل وطنك، وتندفع الى العمل المثمر الذي يرفع من شأنك وشأنه، شعارك « الصدق في القول والأخلاص في العمل »، ورائدك « أن وطننا يترقب من أبنائه الكثير ».

ذلك هو الهدف السامي الذي قصدته، وأملي وطيد في أن أكون قد أصبته، وفوق كل ذي علم عليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المصادر

هي كثيرة نكتفي بذكر أهمها لتكون مرجعا لمن أراد التوسع والزيادة :

المصدر	المؤلف
1 – تونس عبر التاريخ	أحمد بن عامر
2 – المؤنس	ابن أبي دينار
3 – تونس العربية	إحسان حقي
4 – رحلة التيجاني	أبو محمد عبد الله التجاني
5 – التصوف الاسلامي	محمد البهلي النيال
6 – تاريخ معالم التوحيد	محمد بن الخوجة
7 – الجزء 1 و 2 من تاريخ	أحمد بن أبي الضياف
8 – خلاصة تاريخ تونس	حسن حسني عبد الوهاب
9 – شهيرات التونسيات	حسن حسني عبد الوهاب
10 – ورقات 1 و 2	حسن حسني عبد الوهاب
11 – حضارة العرب	غوستاف لوبون
12 – مؤنس الأحبة في أخبار جربة	محمد أبوراس الجربي
13 – مفتاح التاريخ	البشير صفر
14 – أعلام الفكر الاسلامي	محمد الفاضل بن عاشور

كتب المؤلف

المطبوعة

- تونس عبر التاريخ

مرجع تاريخي يبرز تاريخ تونس الخضراء كاملا من أقدام العصور الى العهد الجمهوري .

- التربية القومية

مصدر يتضمن : تقسيم تونس الاداري – نظامها السياسي، علاقاتها الأممية – علاقات المواطنين فيها بينهم.

- موجز تاريخ تونس

مطابق في مادته لبرنامج السنة الخامسة الابتدائية.

- مبادىء النحو والصرف

مطابق في مادته لبرنامج السنة الثالثة الابتدائية.

- دروس الدين والتربية

« قرآن عبادات أخلاق » أربعة أجزاء.

- الدولة الصنهاجية

صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية.

- الدولة الحفصية

صفحات ذهبية من الحضارة التونسية

المعدة للطبع

* في ربوع الحرمين الشريفين

– رحلة تستعرض صورا عن الحرمين الشريفين، وتقدم عمليا مناسك الحج والعمرة والزيارة النبوية.

* أضواء على المرأة التونسية

– صور عن حياتها عبر العصور.

* نظارات ومباحث

صفحات مجيدة من تراثنا الحضاري.

صور الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم – صلى الله على سيدنا محمد. كل نفس ذائقة الموت. هذا قبر الحرة الصالحة الزهراء بنت الشيخ صالح أبو سعيد توفيت صباح يوم الاربعاء السابع عشر لذي قعدة عام إحدى وثمانين وتسعمائة. غفر الله لها ولوالديها، ولمن دعا لها بالرحمة. وللمسلمين أجمعين.

محتويات الكتاب

صفحة

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطبعة الاتحاد العام التونسي
للشغل فى شهر اكتوبر 1974

هذا الكتــاب

- يساهم في نشر الثقافــة وتعميم منافعها وتحقيــق النمــو الفكري ويساعد على ازدهــار النهضة العلمية ويمكن من استخلاص العبر والمثــل العليــا .

- يعــرف المواطنين بما من شانه ان يزيدهم من معرفة وطنهم ويدل على مجده وفخره .

- يمدهم بصفحات ذهبيــة من تاريخ وطنهم حتى يضطلعــوا بالزيادة من محبته والتضافر لرفع منزلته خاصة وهو يتطلع الى مستقبل مجيد وينشادهم التفاني في الاجتهاد ويدعوهم الى اقتفاء أثر الاجداد الامجاد .

الثمــن :